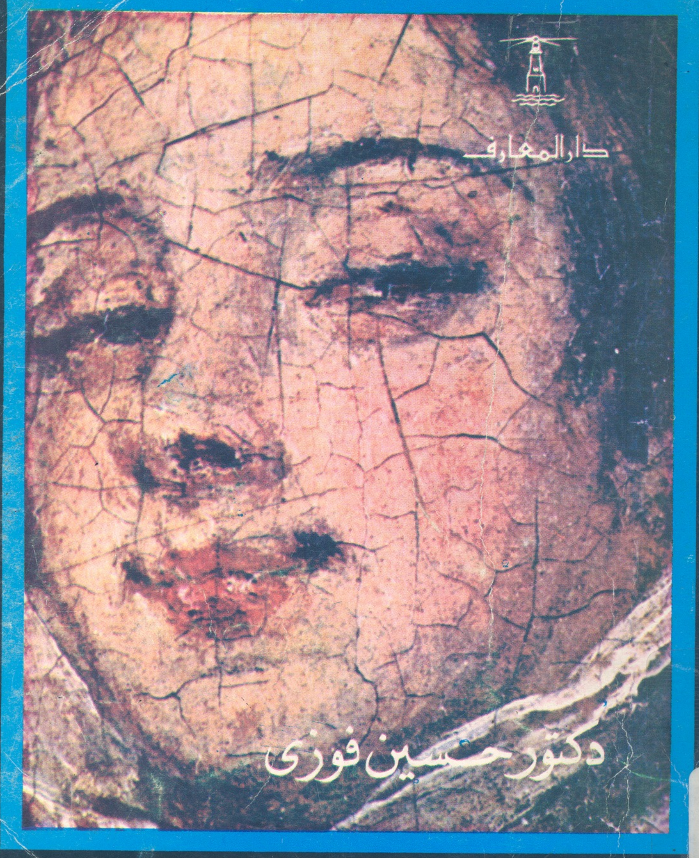


تأملات في عصر الرينسانس

تأمّلات في عصر الرينسانس

د. حسين فوزى

تأملات فى عصر الرينسانس



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع

تمهيد شخصى

لست مؤرخًا ، ولكنى أعشق التاريخ ، قراءته عندى معايشة له . تاريخ بلادى توكيد لشخصيتى ، والتاريخ الإسلامى توكيد لإيمانى ، والتاريخ العام توكيد لرفقة الإنسان . تجذبنى فى كل هذه التواريخ حقبات اليقظة ، التى تدفع الإنسان فى مراقى الحضارة دفعًا ، بالفكر والإحساس ، وإعمال كافة الحواس ، قد يبلغها بالثورات ، وقد يحققها بالسلام . قد ينتشر فكره الجديد انتشار الضياء ، وقد ينتقل بالغزو ، وهو شر يطوى الخير ، فينتقل هذا غصبًا عنه .

يقظة الشعوب هى التى تعنينى ، أيًا كان مصدرها . يعنينى ما نقلته الحروب الصليبية من الحضارة الإسلامية إلى الغرب . وما أفاده الشرق الأوسط منها . ما كسبه العرب من الروم (بيزنطة) ، ومن الفرس ، ومن الهند . وما نقلته الفتوح الإسلامية إلى صقلية . وشبه جزيرة إيبريا إلى أوربا . وفضل الثورة الفرنسية على الدنيا . فكانت مصدر الخير الذى خرج من شر الغزو الفرنسى بقيادة نابليون

بونابرت . فالحرية التى نشرتها تلك الثورة فى العالم هى أيضًا ، بنت عصر الإرهاب اليعقوبى .

وفى التاريخ حضارات أصيلة تمثل يقظة الإنسان بحكم إنسانيته ، وقدراته العقلية والشعورية . حضارات « الشرق الأدنى » : فى وادى النيل ، وبلاد الرافدين ، وحضارة اليونان . وحضارات آسيا : فارس ، والهند ، والصين . ثم الحضارات التى نزلت بها الكتب السماوية الثلاثة .

وبنفسى أتحدث عن حضارة « الرينسانس » ، أو ما ننعته بكلمتين : عصر النهضة ، أو عصر الإحياء . وهى حضارة نشأت فى الدويلات الإيطالية ، فكانت نتاجًا عجيبًا من مسيحية العصر الوسيط ، ومن العودة إلى حضارة الإغريق ، وإحياء حضارة الرومان ، ومما استألفته من الحضارة الإسلامية . لا أكتبها لمجرد ناقل من أعلام الكتب التى أرخت لها ، وإنما كقارئ رأى ووعى ما جاء بتلك الكتب ، بعد جولاتى فى بلاد نشأتها ، وقد شاهدت آثارها وقرأت بعض آدابها ، وتمتعت بكل مظاهر فنونها .

ولقد فاضلت بين ما قرأت من مؤلفات عنها ، وأشهد بأن كتاب السويسرى من مدينة « بازل » أو (بال) يعقوب بوركارت : « حضارة الرينسانس فى إيطاليا » هو أشهرها ، ومن أقدرها على النفاذ إلى أصولها ، فاتخذته قائدًا لتحرير بعض هذه الفصول التى تؤلف كتابًا عربيًّا صحيحًا ، أرجو له إذا ما تم أن يقوم بدور الدليل

العقلانى إلى تلك الحضارة ، يضىء لنا جميعًا سواء السبيل فيما أعتبره أساسًا لا غنى عنه لمن يتلمس طريقًا يُبلِّغه معنى الحضارة إطلاقًا ، فهى فكر وفن وعلم ، وتفتح لاكتشاف المعمورة دنيا ، والإنسان روحًا وجسدًا ، والجماعات إدارة وسياسة ، واقتصادًا وتجارة .

قسَّم بوركارت كتابه ستة أقسام ، هذه رءوس موضوعاتها :

- الدولة كعمل فنى
- نمو الفرد
- إحياء الحضارات القديمة
- اكتشاف الدنيا واكتشاف الإنسان
- المجتمع واحتفالاته وأعياده
- الدين والأخلاق .

وإذ أبدأ بنمو الفرد فلأن عنوان حضارة الرينسانس هو إنسان متفتح العقل والشخصية ، يطرق مجالات المعرفة بمقدرات البشر ، وإنجازاته فى الفكر والفن والعلم والأدب . وتتلقانا هنا ظاهرة مشابهة فى أوج الحضارة العربية ، إذ يتجه فكرنا توًّا إلى أبناء سينا ورشد والهيثم وخلدون ، وإلى أبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى . وهى شخصيات موسوعية ، إنْ تخصصت فى باب من أبواب المعرفة ، فإن اتساع ذهنها ، وامتداد بصرها ، يصلها بشتى فنون المعرفة ، وعلومها وآدابها .

وأستأذن هنا فى ظرف شخصى وهو الدافع إلى اعتزامى

وضع هذه الفصول . فهى مهداة مقدمًا إلى روح الطبيب المصرى العلامة ، والمفكر العربى الأصيل المرحوم : الدكتور محمد كامل حسين فهو الصورة التى تكشفت لى فى منتصف عمره وعمرى ، ممثلة للشخصية الجذرية فى حضارة العرب ، وفى حضارة الرينسانس .

وقد احتفل «الاتحاد العلمى المصرى» فى الشهر الأخير من سنة ١٩٧٧ ، عام وفاة كامل حسين (فى شهر مارس) بإحياء ذكراه . وكان علىّ فى هذا الاحتفال أن أتحدث عن محمد كامل حسين ، الإنسان الذى يمثل «الهيومانزم» فى عصرنا ، أصدق تمثيل .

اتجهت فى إعلام خطابى إلى «عصر الإحياء» بحثًا عن نموذج فردى يضاهى كامل حسين . وعندما وقع اختيارى على هذا النموذج ، عثرت على وصف شاعر كبير صديق معاصر له ، هو «بوليتسيانو» ، شاعر بلاط «لورنتسو» الأفخم ، أمير فلورنسا فى أزهى حقبات عصر «الرينسانس» . فترجمت هذا الوصف بتصرف مقصور على إخفاء بعض المعالم التى تكشف عن الشخص الموصوف فى الأصل الإيطالى . فيحسب المستمع المصرى العارف بكامل حسين أنه وصف له :

«كان ألمع الشخصيات فى المجتمع . شخصيته الجذابة شبت ونمت على المعرفة . وبدافع عقله اليقظ تابع الدراسة من باب إلى آخر ، وحقق امتيازًا ملحوظًا فى الشعر والأدب ، والفلسفة ، والعلم . وصفه شاعر من معارفه بأنه نموذج مثالى ، وهبته الطبيعة كل

عطائها . . . رجل مكب على الدرس بلا معاناة ، صاحب ذاكرة عجيبة ، وثقافة بارحة الجنبات ، متمكن من لغته ، فهو علم فيها ، متضلع فى لغات أخرى . دماثة الخلق فى طبعه ، متفتح العقل لكل فلسفة ، وكل دين . لا يرفض نظامًا عقلانيًا ، مع أنه المتصوف بقلبه وكيانه ، دون تقبل الغيبيات الشعبية . يعطف على الفلسفة الاسكولائية ، وهذا غير معهود فى أنداده ، متبحر فى الفكر العربى ، ومنتظر على الفكر العبرانى . لا أثر لتعصب فى تفكيره ، ولا فى علاقاته . طالع الأناجيل وأسفار «العهد القديم» ، وتدارس الديانات المقارنة ، وجمع فى وحدة معارفه الموسوعية ، والمسيحية ، وضم إليها الأفلاطونية .

« وعلى الرغم من الاحترام والتبجيل الذى يقابل به فى كل موضع ، فقد احتفظ بتواضعه ، إلا فيما يمس دقة تفكيره ، وصحة علمه ، أويحط عن قرب أوبعد ، بقيمة العقل والحكمة » .

والموصوف بهذا فى الأصل هو : الكونت چوڤانى پيكوديلاّ ميراندولا . كان عضوًا بأكاديمية أفلاطون بفلورنسا ، وهى تجمع الدارسين للحوار الأفلاطونى : مارسيليو فلشينو ، مترجم أعمال الفيلسوف اليونانى الأعظم ، إلى اللغة اللاتينية . والشاعر بوليتسيانو ، وسيد الفنانين ميكلانجلو بوناروتى ، ومنشئ الأكاديمية ، الشاعر الرعوى ، أمير فلورنسا ، لورنتسودى ميديتشى الأفخم .

كان پيكوديلاّ ميراندولا الشخصية الساحرة فى الأكاديمية .

درس فى جامعتى بولونيا وباريس ، واستقبل بحفاوة فى بلاطات أوربا ، ثم استقر فى فلورنسا بطلب الأمير المديتشى . عالج الشعر والفلسفة والعمارة والموسيقى . وصفه الشاعر بوليتسيانو : طويل القامة ، وسيم الطلعة ، وضاؤها ، قوى الذاكرة ، موسوعى الثقافة ، عارف بلغات كثيرة ، حَفِىٌّ بالنساء والفلاسفة ، كريم الخلق ، بارز فى كل ما يتسم بالعقل ، عقله متفتح لكل فلسفة وديانة . . وإليك صفحة من كلام الكونت «پيكوچوڤانى ديلا ميراندولا» تدلّ على منزلته :

سوّى الرب الإنسان فى ختام مخلوقاته ، خلقه ليتعرف على قوانين الكون ، فيعشق جماله ، ويعجب بعظمته . لم يربطه بمكان ثابت ، ولا فى عمل بعينه ، أو بضرورات جامدة . ولكنه ، سبحانه ، وهبه الحرية فى إرادته وباطنه .

«قال الرب لآدم ؛ لقد وضعتك فى وسط الدنيا ، لكى تشرف ، وترى كل ما فيها . لم أخلقك سماويًّا ، ولا أرضيًّا . لا فانياً ولا خالدًا . لك الحرية لتسوى وتحكم بنفسك . فقد تنحط إلى درجة البهائم ، وقد ترقى إلى الشبه الربانى . فالحيوانات تحمل من أجساد أمهاتها ما يلبث بها طول حياتها . أما الملائكة فهم منذ الخليقة ، أو فى أعقابها على التو ، باقون كما هم إلى أبد الآبدين . لك وحدك النماء ، والتطور حسبما تشاء إرادتك الحرة . لأنك تحمل فى كيانك كل بذور (جراثيم) الحياة الدنيا» . . » .

صفة عامة لعصر الإحياء : اتساع الثقافة ، مما يمهد الطريق إلى التقدم ، ويسمو بالحاسة الفنية للإنسان . . .

عهد الإحياء فى أوربا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث فى عهد ازدهار الحضارة العربية ، سواء فى عصر المأمون ، أو بعده فى حضارة الأندلس . لم يقتصر « الرينسانس » على ما يفهم من اسمه ، ومعناه « الميلاد من جديد » . توصيفًا للعودة إلى حضارة الإغريق والرومان . وإنما كان انفتاح الإنسان على نفسه لتحليل ظاهرها وباطنها . وتشوقه إلى استطلاع الكون وإكتشافه . وهذه الظاهرة لم يختص بها « الرينسانس » ، ولا عصر المأمون ، أو عصر عبد الرحمن الأموى ، صقر قريش ، وإنما هى سمة كل حضارة مزدهرة ، يمكن أن توصف بيقظة الروح والعقل . . . يقول « ول ديورانت » فى مجلده « عصر الإيمان » ، من كتابه : « قصة الحضارة » :

« ارتفاع شأو الحضارة الإسلامية ، وتدهورها ، من المعالم الكبرى فى التاريخ . فلِمَدَى خمسة قرون من سنة ٧٠٠م حتى سنة ١٢٠٠م ، قاد الإسلام العالم سؤددًا ونظامًا ، واتساع ملك ، وأسلوبًا فى الحياة رقيقًا مهذبًا . كما قاده فى نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفى التشريعات الإنسانية ، والتسامح الدينى ، وفى مجالات الأدب وبحوثه ، وميادين العلوم ، والطب ، والفلسفة . . . » .

وحينما تلمست الشبه بين العالم والطبيب ، والأديب محمد كامل

حسين ، وبين رجل الرينسانس النموذجى ، إنما عنيت تصوير الشخصية الحضارية التى تؤثر فى عصر من العصور ، وتبقى معلمًا من معالمه ، وتشير إلى نهضة أو إحياء . .

محمد كامل حسين فى القرن العشرين ، مثل پيكوديلا ميراندولا فى القرن الخامس عشر . يمثل عصر نهضة وإحياء بدأ فى منتصف القرن الماضى ، حين كان علمه وشارته ودليله هو رجل الأزهر رفاعة رافع الطهطاوى . وما فتئ هذا العصر يغذ السير إلى الذروة على الرغم مما ابتلى به من حكام ضعاف أو أقوياء ، ولكنهم فى الجريمة سواء : جريمة إهمال شعب خلاق ، صناعته الحضارة ، وتاريخه فى الحضارات لامع رائع .

المقدمات

١ – عصر الإحياء منارة الحضارة الحديثة

تعمقت دراسة عصر الإحياء ، وهو الموصوف فى اللغات الأوربية باسم «الميلاد من جديد» (الرينسانس) ، وخاصة بعد زيارتى الممتدة لباريس ، اتسعت فيها مراجعى . ولقد سألنى بعض زملائى القدامى هناك عن سر اهتمامى بذلك العصر الأصيل فى حضارتهم .

وإجابتى لا لبس فيها ، تتلخص فى إحساسى بأن «عصر الإحياء» بمصر بدأ فى القرن الماضى على يد أعضاء البعثات العلمية إلى باريس ، بعد عودتهم ، وعلى الأخص إمامهم الشيخ العالم رفاعة رافع الطهطاوى . وأحب أن أضيف هنا اسم رجل الدين العظيم الشيخ محمد عبده .

لم أقتصر فى دراستى على الرينسانس ، بل حرصت على مراجعة العصر الوسيط ، وتاريخه يبدأ بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية الغربية بفعل برابرة الشمال الأوربى ، ويتوارى بمطالع «الرينسانس» فى القرن الرابع عشر ، وبازدهاره فى القرنين الخامس عشر والسادس

عشر . ولقد فزعت من طول تخلفنا منذ الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر وكاتب هذا من المؤمنين بأن كانت لعصورنا الإسلامية مشاركة فعالة فى الحضارة العربية – وهذه عندى هى أس البداية ، بل هى الأساس المكين فى العودة لإحياء نهضتنا . بشرط واحد ، وهو أن تتواءم هذه النهضة مع الحضارة الحديثة بكافة وسائلها الفنية والعلمية والاجتماعية .

وهناك رأى للمؤرخين المحدثين – وخاصة من مؤرخى العصور الوسطى – يعترضون فيه على وصفها بعصور الظلام ، وتحت نظرى فى هذه اللحظة كتاب تاريخ مدرسى للمرحلة الثانوية بفرنسا ، ولم أعثر فيه على ما يقابل كلمة «دارك» (مظلم) استعمالاً لها فى وصف «العصر الوسيط» عند الفرنسيين . والكتاب المدرسى يضع تقسيمًا للتاريخ منذ نهاية العصور الكلاسيكية القديمة : «**العصر الوسيط**» هو عصر الإقطاع ويعنى التقطيع السياسى والأرضى إلى أقصى حد . . . ويبدو أن شارلمان فى عام ٨٠٠ وفق فى توحيد إمبراطوريته ، ولكنها تقطعت بعد وفاته ، إلى نظام الحكم «الفيودالى» (الإقطاعى) .

وفى نهاية القرن الخامس عشر تبدأ «**العصور الحديثة**» بالاختراعات الكبيرة كالمطبعة ، واكتشاف قارات جديدة عبر الأقيانوس الاطلنطى ويحرر «الرينسانس» النفوس من الإجبار والخضوع والتشويش والجهالة .

. . وفى ختام القرن الثامن عشر تحدد الثورة الفرنسية مطالع «**العصر الحاضر**» : الحريات السياسية والمساواة أمام القانون ، وحكم الشعب .

٢ – متشابهات سطحية

أحدث ما بين يدى من كتب متخصصة صدر ضمن سلسلة يديرها الأستاذ ريمون بلوك تحت اسم «مجموعة تواريخ الحضارات» ، وهو كتاب فخم صدر فى سنة ١٩٦٧ (طبعته الأحْدَث بتاريخ ١٩٧٣) محلى بكثير من الصور والخرائط والبيانات ، ألفه مؤرخ نابه ، هو الأستاذ جان ديلوموه بعنوان «حضارة الرينسانس» . يقول الأستاذ ريمون بلوك فى تقديمه لمؤلف تلميذه :

« . . . وربما كان من خاتمة هذه الدراسة فكرة المعاصرة (موديرنزم) وهى تظهر بأجلى بيان ، إذ يقدم الكتاب فى صورة رجاله وإنجازاتهم علائم تشبه بشكل عجيب سمات عصرنا الحاضر ، ترقيه الفرد ، وتميز شخصيته . تصحيح وضع المرأة ، وتقويم التربية بحيث تهدف إلى تكوين صادق للإنسان ، لا إلى إثقاله بحمل لا يجدى روحه الهضيمة تحت وقر المعارف ، عناية بالجسم وتربيته الرياضية ، وبالتفكير الشخصى ، مدعمًا بالتجربة عن ماهية الإنسان ، وطبيعته ، وعقيدته ، إثارة حماسه للإبداع الفنى

والأدبى ، وللتحكم الآلى ، بالإضافة إلى دفع النخوة فيه نحو المجد الذى تحلت به اتجاهات ومنجزات اليونان والرومان ، كل ذلك مكتسب من القرن السادس عشر فى أوربا . ألا يبدو وكأنه فى الوقت ذاته بعض من اهتماماتنا الحديثة ؟» .

٣ – المال عند «اليانكى»

ويقول ويل ديورانت فى مجلده الكبير عن «الرينسانس» فى صفحة تجمع بين رجل الثقافة الكامل بالمعنى الأوربى «واليانكى» الصحيح بالمعنى الأميريكى :

«لم يكن كافيًا فى الرينسانس مجرد استحضار الحضارة الكلاسيكية . وإنما كان المال ، المال البورجوازى فياح الرائحة من مكاسب مديرى العموم الشطار والعمال ذوى الأجر الضئيل ، ومغامرات السفر إلى الشرق ، أو عبر جبال الألب لشراء بضاعة رخيصة فى موضعها ، لتباع بأسعار مجزية فى بلد التاجر . ثم كانت الحسابات الدقيقة ، ورءوس الأموال ، والقروض ، والعوائد والفوائد المتكتلة ، بحيث تترك فائضًا – بعد الصرف على حاجات الجسد ، ورشوة أعضاء «السناتو» ، واللجان المتخصصة ، والعشيقات – وهذا الفائض هو الذى يؤدى الثمن لميكلانجلو وتبسيانو . وبهذا تحول المال إلى جمال وكمال ، وتعطرت الثروة بعبير الفن .

المال أساس كل حضارة ، مال التجارة ، ورجال البنوك ،

والكنيسة ، هو الذى أوفى ثمن المخطوطات التى أعادت الحياة لعصر الكلاسيكيات . ليست المخطوطات هى التى تحرر العقل وتنقى الإحساس ، إنما هى «العلمانية» التى صاحبت ظهور الطبقة الوسطى ، كانت هى الجامعات واتساع المعارف ، والفلسفة ، وشحذ العقول بدراسة القانون ، وانفساح الفكر بإدراك أوسع وأصح للدنيا .

لماذا كان أهل الشمال الإيطالى من دون أوربا ، أول من أحسوا بنسمات الربيع الحضارى ؟ لأن العالم الرومانى لم يختف فى أرضهم تمامًا . فالمدن احتفظت بوضعها القديم ، مما استحضر ذاكرة الأهلين ، وهاهم أولئك يعودون إلى القانون الرومانى . وآثار الفن الكلاسيكى باقية فى ڤيرونا ومانتوا ، وپادوا ، وروما ، ومبنى «البانتيون» ما فتىء مكانًا للعبادة برغم مضى ١٤٠٠ عام على بنائه . ويكاد المرء يسمع فيه صوت سيسيرون ويوليوس قيصر ، فى جدال عام حول قضية «كاتيلينا» . واللغة اللاتينية بقيت حية ، والإيطالية لهجة عامية منها ذات تنغيم . والشمال الإيطالى أكثر عمارًا بالمدن ، وبالصناعة ، ولم تسبق له معاناة الإقطاع بمعناه التيوتونى . وإنما أخضع النبلاء تبعًا لحاجات المدن ، ومعهم التجار بطبيعة الحال . وهؤلاء ذوو أقدام تلقاهم فى كل مكان من أسواق فرنسا حتى موانئ البحر الأسود . درجوا على معاشرة الروم والعرب ، والمصريين والفرس واليهود ، والهنود ، والصينيين . خفت لديهم حدة التعصب الدينى ، فتأثرت بهم الفئة المتعلمة ولم تنفر من أهل أديان غير ديانتهم .

يبدو أن الفكر العملى لأصحاب مهن المبادلة ، مضافة إلى التقاليد القومية ، وسجية فى الشعب وكبريائه ، حافظت على تمسك الإيطاليين بديانتهم على المذهب الكاثوليكى . ولم يَحُلْ تدينهم دون إعجابهم وكلفهم بحضارة أسلافهم القدامى ، على الرغم من وثنيتهم .

وساعد الإيطاليين على تحقيق الرخاء ، المالُ الكثير الذى امتلأت به خزائن الفاتيكان بفضل إغداق المسيحيين فى أصقاع كثيرة على كنيستهم الأم : فكانت هذه الثروة تسمح لفائضها أن يجرى على الشعب الإيطالى الملتف حول كرسى بطرس الرسول . وكانت حكومة الفاتيكان تغضى عن خطايا الجسد . وفى معاملة الفلاسفة ، حتى ذوى نزعة الهرطقة ، كانت تتجاوز ، مادام نشاطهم لا يمس ممارسة الشعب لدينه .

كل هذا يفسر سبق إيطاليا بنحو مائة عام ، على بقية غرب أوربا فى الفن والفكر . وعندما خبا وهج «الرينسانس» الإيطالى فى القرن السادس عشر ، انتقلت حضارة «الإحياء» إلى فرنسا ، فألمانيا والأراضى الواطئة ، وإنجلترا ، وأسبانيا والبرتغال .

ومن الحق أن يوصف الرينسانس بأنه ليس حقبة من الزمن ولكنه «نظام فى الفكر» .

٤ – التمسك بالعقيدة فى مواجهة حضارة وثنية

أول ما يتصور القارئ ، حيال تحرك إيطاليا الوسطى – فلورنسا بالذات – إلى حضارة اليونان والرومان ، هو التعارض بين حضارة وثنية ، وبين شعب مسيحى كاثوليكى . وينطبق ذلك كافة على الأمم الأوربية التى نقلت عن فلورنسا وساهمت فى حضارة الرينسانس : فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا ، وبلاد الفلمنك ، وشبه جزيرة أيبريا .

وقبل كل هؤلاء وقفت الحضارة الإسلامية موقفاً مشابهاً فى مواجهة الإغريق ، ولكن المسلمين تجنبوا منها كل ما يتصل بالوثنية ، وأهمها الأدب الإغريقى شعرًا غنائيًّا (ليريكيا) أو دراميًّا أو ملاحم وقصصًا نثرية . وواضح أنهم عرفوا بأمره بدليل الإشارة إلى الكوميديا (القوموذيا) والتراجيديا ، ووصفت الأولى بشعر الهجاء ، والثانية بالمراثى . ولنتأمل قليلاً فى معنى هذا ، وقد أقبل مفكرو العرب فى نهضتهم على الفلسفة الإغريقية ، مترجمة إلى السريانية ، ومنها إلى العربية . والإجابة الميسرة هى أن الخيال فى المسرح الإغريقى ، وفى شعر الملاحم ، جعل من الآلهة شخصيات درامية أو ملحمية . وعند هوميروس تدخل الأرباب ، من ذكر وأنثى فى مجرى حرب طروادة ، وفى تجوال أودسيوس حول بحرنا القديم ، تدخلوا إلى درجة هبوطهم إلى شخصيات إنسانية بكل عيوبها وحسناتها ، إنما امتازوا عليها بالقدرة والقوة ، تأمل فى الدراما

الإغريقية وكسر شوكة الإنسان عندما يقدم على مقاومة الأرباب ، ولا تكاد تخرج مآسى التراجيديا عن هذا الصراع الجبار بين الإنسان ، والمقدَر له بحكم الأرباب .

والمؤكد لدينا أن المسلمين عرفوا ، ولو بالاسم ، هوميروس. وأذكر جيدًا فى الكتب العربية أن مسلمًا ذهب لزيارة صديق فوجد عنده رجلاً يلقى شعرًا لهوميروس ، وآسف أن قد ضاعت من ذاكرتى تفاصيل هذه الواقعة . ويخيل إلىّ أن المسلمين من الأدباء والمفكرين كانوا بمجرد سرد أية خرافة إغريقية يتضح لهم أن مثل هذا الأدب الوثنى ينزل بمرتبة آلهته إلى أحط درجات البشر فى غيرتهم وغضبهم وغرامياتهم ، والرضوخ لشهواتهم . فالمسلم فى توحيده ، ونظمه الأخلاقية ، إذ يواجه وثنية وضيعة ، يقيم ستارًا سميكًا بين الكتابى والوثنى . وكان إعجابى شديداً بالعلامة الإسلامى الكبير البيرونى ، وهو فى ركاب السلطان محمود الغزنوى واقتحامه الهند ، جرؤ على دراسة كبيرة لديانة الهندوس ، فإن تساؤلنا عن قبول الأوربيين ، وإقبالهم على حضارة اليونان والرومان ، دون أن يشيحوا بوجوههم عن الناحية الدينية فى الأدب الكلاسيكى ، نتلقى عنه إجابة واضحة فى كتاب بوركارت عن الرينسانس ، وقد ترجم إلى كل اللغات الحية فى أوربا – وهاهى ذى : «لإيضاح هذا التعارض الخطير بين حضارة وثنية ، وبين شعب مسيحى ، نستفهم عن ثقافتهم العقلانية . فهؤلاء الرجال المحدثون نَشئُوا مسيحيين متمسكين ومحافظين على ديانتهم ، شأن أسلافهم فى العصر الوسيط . غير أن

نضج الشخصية فى فلورنسا جعل الإنسان أشد إحساسًا بفرديته . ولقد تأثر الفلورنسيون فى مجموعهم بالسحر العجيب الذى استولى عليهم فى اكتشاف عالمهم القديم ، إلى درجة أن تثقيفهم الفكرى جعل منهم رجالاً جددًا تقدموا على الأوربيين الآخرين ، ولم ينكصوا عن ممارسة شعائر كنيستهم ، وهم يداولون كبشر بين ما قد يحدث لهم من الوقوع فريسة لشهواتهم وأنانيتهم ، وبين العودة إلى تقواهم يطلبون المغفرة .

ومن ناحية أخرى كان اتصال الإيطاليين تبعًا لتجارتهم ، بالبيزنطيين (الأرثوذكس) وبالمسلمين ، دافعًا إلى سماحة وانفساح أفق لا يضيقه عليهم إحساسهم بأنهم كاثوليك . وعندما أصبحت الحضارة الكلاسيكية مثلاً أعلى لهم بما اكتشفوا فيها من عظماء الرجال ، ومن مؤسسات ونظم رائعة ، قوى إدراكهم لهذا ، أن أصحاب تلك الحضارة القديمة هم بالذات من أسلافهم .

كان إيطاليو الوسط والشمال إذن هم أول الأوربيين المحدثين يناقشون فكرة الحرية بشدة ، وهم محكومون بنظام سياسى قوامه سيادة القوة على القانون ، وكان القدر يؤكد لهم سيطرة الشر . وقد خفف ذلك من إيمان البعض ، فاتجهوا إلى الرضا بحكم القدر ، مكتفين بإقامة شعائرهم ، مع تَعَلُّقٍ بالخرافات أيًّا كان مصدرها ، إغريقيًّا ، رومانيًّا ، أو شرقيًّا ، مثلهم فى هذا مثل أسلافهم ، أهل العصر الوسيط . كما آمنوا بالسحر ودعامة حياة الإنسان بحركة الكواكب مما يعرف «بالاسترولوجيا» (علم الفلك الأسطورى) .

ومن الخطأ ، وهم فى هذه الغيبة الروحية ، أن يتهموا بالوثنية ، فإن التعمق فى تحليل نفسيتهم يكشف لنا ، خلف ظاهرهم ، عن إحساس دينى قوى ، دون التمسك الضيق بفرائض مرسومة ، وكأن كل فرد منهم اتخذ لنفسه عقيدة خاصة ، وحرية فى التعرف على ما يلقى من مشاهد التحول الإنسانى الكبير ، ومن ظواهره احتفاؤهم بالإسلام . حدث هذا فى أعقاب الحروب الصليبية ، وقد امتدت الرحلات إلى الشرق تجارة وسياحة (كانت السياحة فى الأغلب حجيجًا مسيحيًّا إلى مقدساتهم فى فلسطين ومصر) .

وحتى منذ القرن التاسع عشر يمكن أن نجد لدى الإيطاليين الاعتراف بالمُثل العليا عند المسلمين فى الكرم ، كما فى الإحساس بالكرامة ، والاعتداد بالنفس ، وهذا الشعور يتمثل لهم فى سلطان أو أمير أيوبى ، أو سلطان من مماليك مصر . وعندما يحتاجون إلى مثل شخص بعينه حائز لهذه السجايا فإنهم لابد واجدوه فى صلاح الدين يوسف .

ويجدر بنا العلم يقيناً بأن عناية الإيطاليين كانت بالفلسفة اليونانية لا بالوثنية ، مع ملاحظة أن الأدب الإغريقى ذاته يتضح فيه تغلب الفكر الفلسفى على الإيمان بالأوثان .

ومن معالجة دانتى ومعاصريه يبدو أن الفلسفة اليونانية بدأت تخرج فى إيطاليا «أبيقوريين» بمعنى نشر أفكار تتعارض مع العقيدة المسيحية . ولكن مؤلفات «أبيقور» ليست موجودة ، ولا معروفة .

وحتى الحضارة الإغريقية ذاتها انتهت بمجرد فكرة غامضة عن مذهب «أبيقور». نعم من الممكن التوصل إلى الأبيقورية ودراستها فى شعر «لوكريس» ، وفى كتابات له ، وفى نثر «سيسيرون» والتعرف منها على عالم اختفى منه الأرباب. والأغلب أن محاكم التفتيش استخدمت «الأبيقورية» تهمة لأعداء الكنيسة عندما كانت تلك المحاكم تفتقد علة لإدانتهم بالهرطقة.

ودانتى ، شاعر العصر الوسيط فى نشيديه التاسع والعاشر من «الجحيم» يصور وادى القبور المفتوحة ، تعلوها غلالات نيران عجيبة ، والأرماس المكشوفة تصدر منها شكاوى أناس ، وصياحهم البائس ، وهم من أهل القرن الثالث عشر ، أدانتهم محاكم التفتيش ، بعضهم كانوا هراطقة فعلاً ، والبعض الآخر أحرقوا بتهمة «الأبيقورية» ، ذنبهم أمام المحكمة تشمله مجموعة من الآراء تلخص أن الروح تفنى مع الجسد. وأهم ما يعنى به رجال الكنيسة هو أن مثل هذه الفكرة تقضى على إمكان تدخلهم فى قدر الإنسان بعد وفاته.

وفى القرن الخامس عشر انتشرت الكتابات الكلاسيكية ، واطلع المثقفون على آثار الإغريق الأدبية ولو فى ترجمات لاتينية.

«والملاحظ جيدًا أن بعض من عرفوا كأشد المتحمسين لهذا التحرك الثقافى ، كانوا من أصدق المتمسكين بقواعد دينهم إلى درجة اعتبارهم من الأتقياء».

انتهت هذه المختارات من كتاب جاكوب بوركارت ، وهو الأقرب إلى نظرتنا فيما أبعد الحضارة الإسلامية عن أدب الاغريق ، عندما يقول المؤرخ السويسرى : «ويجدر بنا العلم يقيناً أن عناية الايطاليين كانت بالفلسفة اليونانية ، لا بالوثنية» .

٥ – ليوناردو دافنشي

يقول الناقد الفنى ليوناللو ڤنتورى فى مؤلفه القيم ، وعنوانه (كيف نفهم التصوير من «چيوتو» حتى مارك شاجال» : «لم يعد الإيطاليون بعد سان فرانسيس الأسّيزى (أى من القرن الثالث عشر) يعنون باللاهوت ، لأنهم أُولعوا بحب الأرض وما عليها ، حبًّا أخذ عليهم المسالك ، حتى لقد نقلت أحاسيسهم بحياة المسيح وأعماله إلى حياة الإنسان اليومية . وهذا ما أنزل فى قلب الناس من مطالع القرن الخامس عشر ، إيمانًا جديدًا بالإنسان ، وأضحى عندهم مركز الخليقة ، وسرتها» .

واختار ڤنتورى مثاله من ليوناردو داڤنشي : صورة «العذراء بين الصخور» فقال : «أشخاص ليوناردو» لا ينفصلون عن المناظر الطبيعية المحيطة بهم ، فحقق الموافقة بين الصورة الإنسانية والطبيعية ، بل وحدهما . أما بيرو ديلاّ فرنشيسكا ، وماذاتشيو وجيوتو فقد زحموا مساحتهم بصور الناس ، فى حين أن ليوناردو عنى بالطبيعة حول الأشخاص ، فأنطق الطبيعة لتوحى بالإنسان ، وروح

الإنسان . . . كان ليوناردو «الأومو أنيفرسالى» (الإنسان العالمى) بمعناه الكامل ، مصورًا ونحاتًا ، ومعماريًا ، وكاتبًا .

«ضرب بسهم فى شتى العلوم والمعارف ، كتاباته توضح اهتمامه بالألوان . وهو ما غدا شيئًا معروفًا مدروسًا اليوم ، وكان مجهولاً من قبل . فعندما صور ، فرض على توافق الألوان أن تجتمع فى مزيج واحد ، وهذا ما يعرف اصطلاحًا «بأسفيوماتوا لكيارو سكورو» وكان كَلِفًا بما يكاد يؤلف لونًا واحدًا (مونوكروم) .

«تابع ليوناردو بنات خياله إلى أبعد من الحقيقة وأرفع ، فاشرأبت روحه نحو مثل عليا فى الجمال كأرق ما يكون الجمال وألطفه ، وهو جمال يكاد يخرج من الواقع إلى التجريد . وفى هذا يقول ليوناردو «أراقب معارج المدينة عندما يشرع المساء فى إرخاء سدوله ، وبخاصة إن كانت السماء غائمة . ما أرق ما ترى ، وما أهدأ ، وما أحلى . . فالضوء الساطع يبرز كل شىء عراء ، والليل الحالك يعشى فيه البصر ، فلا يرى شيئًا ، وخير الأمور الوسط» .

ويمكن أن أنتقل بك الآن إلى موناليزا ، زوجة السنيور فرنشسكو ديل جوكوندا ، من أهل فلورنسا فى عصر الرينسانس ، وقد ماتت الفاتنة منذ خمسمائة عام ، وبقيت صورتها عروسًا مجلوة على لوحة من خشب الجوز عزيزة على كل فؤاد يخفق بحب الفن .

ما معنى التجمع دائمًا لزوار قصر اللّوفر أمام الجيوكوندا ؟ أهى

أعظم لوحة فى الوجود ؟ أم هى أخطر عمل فنى لعصر النهضة ؟

أمَّا أنها صورة عظيمة ، ومكانتها فى الصدارة ، فما فى هذا شك . وأَمَّا أن ليوناردو دافنشي من أكبر فنانى الرينسانس ، وواحد من عبقريات القرون ، فلا تحسبن أن أحدًا يقول بغير هذا . بيد أن ذلك لا يمكن أن يفسر وحده استئثار صورة موناليزا وحدها بلب الجماهير ، إلى الحد المشاهد دائمًا فى قاعات اللوفر ، وإلى ما نالته من حظوة لدى الملايين منذ نحو ربع قرن مضى . وعندى أن أسباب هذه الشعبية المكدسة لصورة واحدة من ليوناردو ترجع إلى عوامل مركزة أولاً وآخرًا على قيمتها الذاتية كعمل شامخ ، ولكنها تمتُّ كذلك إلى ظروف خارجة عنها ، تتعلق بليوناردو نفسه وما تركه من آثار .

لقد عاش هذا الرجل حياة مشتتة عجيبة ، تابع فيها نشاط رجل العِلْم المخترع ، الكاتب والفنان ، بشكل مشوش ، انتهى به إلى قلة من أعمال فنية أورثها للعالم . هذا إلى ما كان من أثر ولعه بالتجارب فى اختراع الألوان ، وخلطها ، والبحث عن مواد أخرى تشارك الزيت فى أثره . فكان من نتيجة وَلَعِهِ هذا أَنْ تعرضت لوحاته للفناء ، أو حالت ، لولا عناية الأخصائيين بالحفاظ عليها .

أعظَم (بمعنى أكبر) أعمال ليوناردو صورة « العشاء الأخير» التى نفذها للآباء الدومنيكان فى دير « سانتا ماريا ديلاّ جراسيا » فى ميلانو (١٤٩٥ - ١٤٩٨) . ولولا أن اللوفر يملك لوحةً جيدة نقلت عن الصورة « الآلافرسكو» لتعذر اليوم على الرائى أن يتبين سوى القليل

من جمال الصورة الحائطية الأصيلة ، وهى تمثل السيد المسيح يتناول عشاءه الأخير مع حوارييه . وقد اختار داڤنشى اللحظة التى نزل فيها قول المسيح نزول العاصفة على الحواريين ، وهو يخبرهم أن واحدًا من بينهم سيغدر به : «ولما كان المساء أتكأ مع الاثنى عشر حواريًّا ، وفيما هم يأكلون قال : الحق أقول لكم عن واحد منكم يسلمنى . فحزنوا جدًّا ، وبدأ كل واحد منهم يقول : هل أنا يا رب ؟ (إنجيل متَّى ٢٦) .

صور ليوناردو مشرقة بالحب ، والرهبة ، فإذا تداولها الحزن فجأة بالاستنكار ، كيف يظهر وجه يهوذا الإسخريوطى ، وقلبه يضطرم بالحقد ونيته مبيتة على الخيانة ؟

كان رئيس الدير الدومنيكانى رجلاً فَدْمًا لا يعرف للفن حرمة ، ولا الفنان مقامًا . فكلما شاهد ليوناردو يضيع نصف نهاره مسترسلاً فى تأملاته ، منقطعاً عن «الشغل» استحثه رئيس الدير وعنفه على «تنبلته» . ومن يدرى ، فربما قال له ذات مرة : «كلكم يا فنانين صنف واحد ، عاوزين نطعمكم لوجه الله» . (لا تعجب إنْ كان شيئًا من هذا قد حدث . فأمامك «الشلوط» الذى أصاب مؤخرة الفتى ڤولفجانج أماديوس موزار من رئيس ديوان الأمير الأسقف حاكم ولاية سالزبورج !) . إنما المؤكد أن رئيس دير سانتا مارزيا ديلاّ جراسيا ، لا فرق عنده بين الفنان والعجان أو الفلاح يعزق الأرض .

ذهب رئيس الدير يشكو ليوناردو إلى أمير ميلانو الدوق لودڤيكو سفورزا (وكنيته «المغربى» إل مورو).

استدعى الأمير مصوره المحبوب، لا ليؤنبه، بل ليتعرف بلباقة عن مدى ما تم من الفريسكو وما حققه فيه. إذ لم يغب الأمر على أذكى الرجال فى عصره. فاضطر ليوناردو أن يصارح الدوق سفورزا «المورو» بجلية الخبر، فيتحدث إليه عن فنه، وعن أن رجل الفن يحقق أكثر ما يحقق فى فنه عندما لا يظهر عليه أنه يؤدى عملاً ما. وأن ما بقى حتى تكتمل الصورة هو وجه السيد المسيح. وقد انتهى دافنشى إلى الإقلاع عن البحث فى هذه الدنيا عمّا يحقق له تصوير ذلك الوجه العلوى... ثم وجه يهوذا الإسخربوطى، وقد ضاقت السبل بالفنان نحو تصوير سحنة تُمَثِّلُ الخيانة والغدر فى أحط وأفظع صورها.

واهتدى أَخِيرًا إلى أَنَّ أصلح الوجوه التى رآها نموذجًا لسحنة الغادر، هو سحنة الراهب الدومنيكانى، رئيس الدير الثقيل، أى أسقف دير سانتا ماريا ديللا جراسيا.

فضحك الدوق سفورزا ملء أشداقه من هذه الفكرة، ووافقه عليها جزءًا وفاقًا لذلك الراهب على جهالته، وسماجته.

تلك هى الصورة التى وفقت إليها ديباجة لكتابى هذا، وسوف يتعرف فيه القارئ على من اختاره من بين شخصيات «الرينسانس»

مفكرين وفنانين ورجال سياسة أو دين ، كانوا صدارة ذوى الأثر فى الانفتاح الباهر الذى أعتبره أهم وأصدق مصدر لحضارة أوربا ، والعالم طرًّا . والذى يعنينى فى هذا الكتاب أن أحدِّدَ بؤرتى على فلورنسا ، فهى عندى كما هى عند المؤرخين ، مِهاد الحضارة التى نعيش فى خيرها ، وشرها اليوم . ويتوقف مستقبلها بعد ما حققه العلم الحديث من روائع خطيرة ، يتوقف مستقبلها على تغليب الخير بالسلام ، فهو ديدن الحضارة ، أما الشر ، فهو الحرب ، شيطانها الرجيم .

٦ – تصويب لازم

قد يحسب القارئ بعد كل هذه الصفحات أن «عصر الإحياء» كان جنة أرضية ، ولم يكن كذلك . والتاريخ الحى الصادق يكره الاستغفال . إنما حساب الرينسانس ، فى كتاب يمينه ، هو تحويله لتيار التاريخ من الضيق والتزمت إلى الانفتاح . ولن يختلف فى سلوكه عن أنه كان عصر جرائم بعض رجاله ونسائه . فنحن هنا لا نؤرخ لعصر أنبياء ، حتى نحلم بجنة الميعاد .

والرينسانس يمتاز بمصاحبة الخير والشر ، حتى لا تكاد تصدق أن اجتماعهما فى إبانة كان ظاهرة مميزة . فهو عصر صادق الإيمان والعقيدة فى صورة الراهب «ساڤونارولا» ، كما هو عصر الجرائم فى أسرة بورچيا السفّاحة ، وعصر الكاتب الأفّاق «الأريتان» (پيترو

أريتينو) ذى اللسان القاذع الساخر الذى انتهى بنفيه ، فذهب إلى روما يحتمى بالبابا ليون العاشر إلى أن نشر أشعاره البذيئة فى فحشها ، فطرده ، وانتهى به الأمر إلى البندقية حيث ألف كوميدياته الإباحية الفاجرة . . . كان كاتبًا موهوبًا ، وإن كان حُوشِيًّا ، يتلقى عون من يخشون لسانه الحامى ، كما كان شديد الإحساس بفن التصوير ، وصديقًا للمصور تسيانو ، عظيم مصورى فينسيا .

الرينسانس كان بحرًا من المتناقضات ، من البساطة إلى التعقيد ، ومن الطهارة وحب الجمال إلى الشهية المنحرفة . ولنشبهه هنا بموقف الفرد ، أميرًا كان أو حاكمًا يجمع بين تحقيق الرخاء والتقدم لشعبة وبين سلوكه الأنانى المملوء بالقسوة والعنف والتكالب على المال .

وعدالة التقدير هنا ، فليس الأمر مختصًا بأفراد ، ولكن بمجتمع له أثر باق فى التاريخ العام . فقد أقبل أهل أوربا – إيطاليين وأسبان – فرنسيين وفلمنكيين وبريطانيين وألمان – على السير فى طريق الرينسانس الواعى لكل ما فى الإنسانية من رجاجة عقل ، وإحساس بالجمال ، وتقدير للفكر ، والانفتاح على العالم .

عصر النهضة أو الإحياء كما نصفه فى لغتنا ، حقق هذا أولاً باتجاه عكسى نحو الماضى البعيد ، وأى ماض : حضارة الإغريق والرومان . كان هذا فى الحق فتحًا على المستقبل ، لأن ما رآه من آثار اليونان القديمة عراقة فى الفكر والفن والديموقراطية ، ومن آثار الرومان فى العمارة والإدارة والقانون أعطته نفحة حضارية عجيبة .

انظر إلى متاحف أوربا وأمريكا . لقد نهبت آثار الفن الإغريقى والرومانى ، قبل وبعد أن نهبت آثار الحضارة الفرعونية ، وغيرها من حضارات الشرق الأدنى والأبعد . ألم تكن هذه الشراهة فى الاتجاه إلى تحقيق الإنسان الأرقى هى التى نادت منذ القرن السادس عشر بأن ميكل أنجلو هو أعظم فنان فى كل العصور ؟ ثم تأمل فيما تحقق بفضل الرينسانس من اكتشاف العالم شرقًا وغربًا ، ومن تحرير الفكر وإصلاح العقيدة . عد دائمًا إلى المتاحف والمكتبات فى أوربا ، لتدرك ما أدى ذلك العصر من تنوير . . هو العصر الذى شجع على استخراج بعض اللغات الأوربية من ربقة اللاتينية ، بترقية لغة العامة . فصاغها الشعراء والكتّاب العظام إلى ما نعرفه من جمال الإيطالية والأسبانية ، ودقة اللغة الفرنسية . بل استطاع الرينسانس التقدم بما نسميه التكنولوجيا ، حتى وهب الإنسان الغربى القدرة على الانفتاح والاكتشاف عبر الإقيانوس ، وأن يستخرج من الحديد «الزهر» والصلب ، وأن يخترع الأسلحة النارية ، ويضبط الأوقات بمحركات دقيقة وينسخ الكتب بالمطابع ، وأول من عرف «الكمبيالات» وأنشأ التأمينات البحرية .

هو الذى أخرج أهل العصر الوسيط من الظلام إلى النور . وخلص الفرد من ضغوط الجماعة . وهذا الوضع تدارسه المؤرخ السويسرى من مدينة بازل (بال) چاكوب بوركارت ، صاحب كتاب «الحضارة فى إيطاليا» .

كان شعب العصر الوسيط يركز التفكير فى ذنوبه ، مهددًا دائمًا

بالشيطان الرجيم ، وبحركة الأفلاك ، ويرهب عذاب الجحيم . وجاء الرينسانس يطالب بشيء من العلمانية ، وأن تتفتح الديانة على الدنيا وما بها من جمال .

ولا يصح اتهام عصر الإحياء باللادينية . فالحق أن المسيحية أحست بالحاجة إلى التجديد . متفتحة للحقائق اليومية ، فى يسر لاعسر . فيشعر الناس بحق أجسادهم ، وإعجابهم بالجمال الحى ، أو فى صوره ، وبهذا لم يعد صعبًا على أهل الفن أن يضيفوا إلى أعمالهم التى تستوحى الكتاب المقدس قديمه وجديده ، صور ما يتخيلون من أساطير الأقدمين .

قال لورنسو ڤالاّ أستاذ الجامعة فى رسالة إلى أحد الزهاد «المسيحية ليست بالضرورة زهدًا ولا نسكًا . وأكتفى بالتوكيد أنك لست أفضل من الآخرين . فهم يَعْدِ لُونَكَ فى الفضيلة ، يمارسون بها حياتهم الناشطة «واشتهر الأستاذ لورنسو ڤالاّ بدفاعه عن اللغة اللاتينية (١٤٠٧ — ١٤٥٧ م) ، وهو الذى أثبت زيف الوثيقة المنسوبة إلى الإمبراطور قسطنطين (القرن الرابع) فكتب سنة ١٤٤٠ نقدًا عنيفًا على ما وصف بالعَطِيَّة (الدوناسيون) . وأكد أن هذه معروفة بزيفها منذ القرن الثامن : نسب فيها إلى أول معتنق المسيحية من أباطرة الرومان أنه «منح» البابا حقوق الإمبراطور . وظل الشك يحوم حولها ، إلى أن حقق زورها لورنسو ڤالاّ .

وقال المؤرخ الفنان ماتّيو پالميرى فى كتابه عن الحياة المدنية

(١٤٣٥ – ١٤٤٠) : «يمكن الآن حقًّا لكل مفكر أن يشكر العناية الإلهية التى قضت بأن يولد فى العصر الجديد ، المفعم بالأمل الموعود ، والذى يشرفه رهط نبيل الروح ، أكثر عددًا من كل ما عرفته الدنيا فى الألف العام المنقضية» .

وقال ماكيافيلّى «فى كل آن تستنبط آراء وفنون جديدة ، تصاغ لهما كلمات جديدة . والقرن الخامس عشر أخصب جدة فى المعارف الجغرافية والعقلانية والفنية ، تعبر عنها مصطلحات فى عالم الفن ، والتعليم ، والتاريخ . وإذا كانت التسمية فى العلوم تجىء متأخرة حتى نهاية فهم ووعى الظاهرة المراد وضع مصطلح لها ، فقد طال الأمد فى وضع كلمة «الرينسانس» لتدل باختصار خادع على التحرك الكبير ، من نشاط التجديد . بل سعادة فى هذه الحقبة ، التى أملى عليها موقفها حيال الماضى . وكانت الفكرة سابقة على المصطلح ، حتى قبل عصره . فإن الأدب والفن والديانة ، على يد المفكرين والكتّاب ، والمصورين والمعماريين ، منذ عصر پترارك وبوكاتشيو . تنبهوا إلى الروابط التى تصلهم بحضارة الإغريق والرومان . ألم يكتب پترارك (١٣٠٤ – ١٣٧٤) فى ملحمته «إفريقيا» عقب زيارته الأولى لروما :

«إنَّ عصرًا أفضل قد تجهز لكم ، إنّ قدر أن يمتد بكم العمر لزمن طويل بعد وفاتى ، حسبما آمل وأرجو ، وأن نومة النسيان هذه لن تستمر دائمًا . فسوف يتجه أحفادنا إلى الروعة فى ضياء الماضى حينما ينقشع الظلام . وعندما اكتشف پترارك عام ١٣٤٥ رسائل

سيسيرون فى دار كتب ڤيرونا ، أخذ فى نسخها على الرغم من مرضه .

ومع إعجاب پترارك بالإغريق فإن جهله باليونانية لم يشعره بمبادلة حميمة ، إلاّ بعد أن تلقى ترجمة «الإلياذة» إلى اللاتينية .

وقال «بوكاتشيو» (١٣١٣ – ١٣٧٥) عن المصور چيوتو إنه أعاد الضوء إلى الفن ، وكان قد انطفأ منذ مئات السنين ، من جراء الأخطاء التى اقترفها المصورون لإرضاء العوام ، بدل إمتاع ذكاء ذوى النهى .

وتواصل مديح القدماء ونما ، حتى الفنان المؤرخ ڤازارى ، ومن جاء بعده . وكان فى هذا . «أس» نظرية التجديد . وفى القرن السادس عشر استعمل مصطلح (الرينسانس) بمعنى التجديد فى الفن .

وجاء المعمارى أنطونيو فيلاريتى (١٤٠٠ – ١٤٦٩) ليقول على لسان عاشق للفنون : «يبدو لى أننى أرى من جديد الأسلوب الرفيع الذى قام من قديم الزمان فى روما ، وفى مصر ، حسبما قرأت عن هذه» .

وفى فلورنسا بدأت العمارة الموسومة بوصف «فن الأقدمين» . فإذا كان المصورون أسبق من المعماريين ، فإن الكتّاب بآمالهم ، ومؤلفاتهم حظوا بالسبق على هؤلاء وأولئك ، فلا ريب فى أن الفنون

والآداب تحورت حوالى منتصف القرن ، وهكذا يمكن القول بأن العصر الذى تنبأ به بترارك جاء محققًا لحدسه بعد جيلين من وفاته سنة ١٣٧٤ .

من العصور الوسطى
إلى
عصر الإحياء

فى الفصل التالى يبدأ هذا الكتاب بالشاعر پترارك ، صاحب بوكاتشيو مؤلف قصص « الديكاميرون » ، ولدا فى تاريخين متقاربين (١٣١٣ و ١٣٠٤) ، وختم دانتى البچيرى حياته عام ١٣٢١ منفيًّا فى رافنّا ، بعيدًا عن فلورنسا مسقط رأسه . دانتى حبيب المرحوم الدكتور حَسَن عثمان الذى قضى عمره الناضج فى دراسة « دانتى ، الروعة المتفردة فى الجنس الايطالى » ، كما دعاه بوكاتشيو فى السيرة التى دبجها لكبير شعراء إيطاليا .

نعم ، قضى حَسَن عثمان نُضجه فى دراسة فن دانتى ، ومركزه فى الأدب الإيطالى والأدب العالمى . وقام بترجمة « الكوميديا الإلهية » نثراً ، بأجزائها الثلاثة : « الجحيم » و « المطهر » ، و « الفردوس » . وكانت الترجمة هدية غالية إلى المكتبة العربية ، اتصلت بالحركة الأدبية فى مطالع هذا القرن ، حين ترجم سليمان البستانى إلياذة هوميروس شعرًا (١٩٠٤) وقدم لها بمقدمة حافلة ، فكرمته البلاد العربية فى المشرق (ولد فى لبنان عام ١٨٥٦ ، وتوفى فى أمريكا

١٩٢٥) . كان يمثل بلاده فى مجلس المبعوثان ، وأقام فى سويسرا فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعد انتهائها قدم إلى مصر ، فى صيف ١٩٢٠ وكنت طالبًا بمدرسة الطب بقصر العينى حظيت بأن نبهنى صديق إلى وجوده فى كازينو سان ستيفانو . وكان صباح أحد فقصده حين كان عدد أعضاء أوركسترا الفندق يرتفع بقيادة بونومى ليقدم حفلاً سمفونيًّا .

وأنا فى أوائل مراهقتى من المعجبين جدًّا بعمل البستانى (ترجمته ومقدمته) ، ومن القلائل الذين قبلوا ترجمته شعرًا . ولكنى أفضل اليوم فى هذه الأعمال الشعرية الكبرى الدقة والسهولة فى الترجمة النثرية . كنت طالباً فى السنة الرابعة الثانوية (١٩١٦ - ١٩١٧) ، وكانت قراءتى لهذه الترجمة بدار الكتب السلطانية (والمصرية فيما بعد) ، إتمامًا لقراءتى درامات إسكيلوس ، وسوفوكليس وأوريبيدس ، والإلياذة ترجمة الشاعر الكسند پوپ .

كانت جلستى عام ١٩٢٠ مع بعض أولاد الذوات ، على مقربة من مترجم الإلياذة ، سعيدًا بمشاهدة شيخ جليل ، يلبس الطربوش ، ويتكئ على شمسيته ، ولعلى أذكر أن واحدة من عوينات نظارته كان زجاجها معطلاً ببياض خفيف .

أما الدكتور حَسَن عثمان فكان من أقرب الناس إلى إعجابى وحبى ، على قلة فرصٍ لقائنا ، والأغلب فى مكتب عملى . وكانت طبيعته انطوائية لا يهتم إلا بعمله الكبير . وحسنًا صنع فإن تكريمه فى

بلاده لم يرتفع عالياً ، وعوضه الله خيرًا ومجدًا إذ تبوأ مكانًا عليًا بين أقطاب الدراسات الدانتيتكية فى العالم .

فى ذلك الزمان البعيد كنت أحسب دانتى وپترارك وبوكاتشيو من رجال عصر «الرينسانس» وتنورت فيما بعد ، فهم من أهل العصر الوسيط ، الذى تغشاه الكآبة تحت سيطرة الفقهاء ، يحضون الناس على احتواء الحياة الدنيا ، وأن يعملوا حسابًا ليوم الحساب ، وكأنى بهم وقد اكتفوا بنصف الحكمة السامية : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» .

كانت العصور الوسطى فى أوربا ، تواجه فى نَفْسِى عصر «الإحياء والنهضة» فيما نصف به «الرينسانس» ، متفتح النوافذ ، وضاء الجبين ، يسعد فيه الإنسان بالانطلاق والحرية . بل كان من القوة والفعالية فى زمانه وفى كل زمان تلاه ، إن اعتبر فاتحة الحضارة الحديثة .

وشيخوختى فى اعتدالها لا تتجاهل العصر الوسيط ، أو تمتهن فكر أهله ، وقد عارض المؤرخون المحدثون فى وصف الحقبة السابقة على الرينسانس «بعصر الظلام» فلقد تغذى أهله بالأدب اللاتينى ، ومن الحق أن نقول بأن الراهبات فى إبانه كنّ يقرأن شعر «أوڤيد» مهذباً .

وكان «أبيلار» واحدًا من فلاسفة العصر الوسيط ، أى الإسكولائيين ، قد حاول التَّخَلُّصَ من ترمت الفقهاء ، فلم يفلح ،

وكان التابعون لفلسفة ابن رشد فى عقلانيتها متهمين بالهرطقة .

أما العلميون فلم يكونوا على بصيرة تامة بما تدارسوه فى ترجمات لاتينية قام بها علماء اليهود لنصوص الفلسفة اليونانية ، وتعليق الشراح المسلمين ، وهوامشهم عليها . وحاولت «الفيزيقا» الحياة فى خلية الراهب روجربيكون ، فاضطهده أقرانه ، لأنه يزعم امتلاك كمٍّ من المعارف والعلوم بما لا يتفق وتواضع الإنسان ، وبخاصة تواضع الرهبان (كذا ! !) وقصارى الأمر ، كان أهل القرون الوسطى مستغرقين فى شئون الآخرة تحت سيطرة شيوخهم .

والشاعر بترارك أول من ابتدع وسيلة جديدة فى طريق المعرفة ، هى التى فتحت باب «الهيومانية» . ففى تعاليم بترارك بدء اكتشاف الإنسان والعالم . والهيومانية هى التقدير الصحيح لكرامة الإنسان فى أنه مخلوق عاقل ذو إرادة ، وإحساس . وجد على الأرض ليستخدمها ويتمتع بخيراتها .

نما عقل الإيطاليين فى ذلك الزمان بالنسبة لبقية الأوربيين ، نبّههم بترارك إلى دراسة أدب اللاتين ، وإلى أهمية الاعتناء والإقبال على آداب الإغريق .

وتابع بوكاتشيو تلك الدعوة بنثره المليء بخفة الروح ، ولطف الدعابة ، وموهبة القصّاص . كما عاد إلى فلورنسا رهط من أهلها بعد زيارة بيزنطة ، قبل سقوطها فى أيدى العثمانيين . فشجعوا على

الاهتمام بحضارة أهل اليونان . وعادوا بما جمعوه من مخطوطات قدماء الإغريق .

وجاء فى نبوءة رئيس دير : «مضى حكم الآب ، وينقضى فى عصرنا حكم الابن . أما حكم الروح ، فهو على وشك الظهور» . كلام رأى فيه بعض الناس بشيرًا بعصر الإحياء أو عودة الروح .

كان الإمبراطور فريديريك الثانى من أسرة الهوهنشتاوفن ، ومن أتباع الحضارة العربية يشجع الثقافة اللبرالية ، ويحكم بتعديل نظام المجتمع على أساس علمانى ، وكأنه بهذا قدم صورة مسبقة لعصر الرينسانس .

ولكن جهوده فى هذا السبيل ضاعت سدى أمام موقف العداء الذى اتخذه الإكليروس ضد الإمبراطور ، وإذا لم تخنّى الذاكرة ، فإن فريديريك فون هوهنشتاوفن ، كان العاهل الصليبى الذى عقد صلحًا مشهورًا مع صلاح الدين الأيوبى ، فى الأراضى المقدسة . وكان تعليق البابا على هذا السلوك : «المنتظر من الصليبى أن يحارب ، لا أن يعقد صلحًا غير وارد» .

واضطر فريديريك فيما بعد إلى التسليم ، ولم ينفعه ذلك . فقد وضعه الشاعر دانتى فى قرار الجحيم . .

ودانتى فى «الكوميديا الإلٰهية» – جوهرة الأدب الإيطالى – جاء موضوعها من صميم التعاليم والكتب الدينية ، و «الفردوس» فيها

ملئ بالرموز الباطنية . ومع ذلك اختار كبير شعراء اللاتين ، فرجيل الوثنى ليكون دليله فى مسيرة الجحيم .

وآخر تلك النوافذ المتفتحة فى العصر الوسيط على عصر النهضة كشفه السر المغلق فى دير «بويرون» من أعمال باڤاريا . ولم يعرف السر . إلا فى القرن التاسع عشر ، عندما اكتشفت أشعار لشباب الرهبان ، بعنوان «كارمينا بورانا» (أغانى بويرون) ، وجلها خمريات وغراميات شباب عابث ، فرّج عن نفسه ، ومتّع شبابه ، بارتياد ألحان ، ندوة الشيطان .

استخدم المؤرج البريطانى سيموندز (فى نهايات القرن الماضى ومطالع الحاضر) مصطلح «إحياء العلوم والمعارف» ، ليقول بأن هذا «الإحياء» فى خواتيم العصور الوسطى ، كان إرهاصًا ثم رسمًا لمسار الرينسانس . فالعنصر الفعال فى إحياء العلوم والمعارف ، هو «الهيومانية» .

«الهيومانى» فى القرن الخامس عشر كان يملك ، أو يطلع على المخطوطات الثمينة ، ويحاضر عن أفلاطون ، أو هوميروس ، بقراءة النص ، ثم يشرحه ويعلق عليه ، فتكشف قريحته وصوته عن أسرار القدماء . فكان الرجال والنساء من كل الطبقات يتزاحمون على الاستماع لمحاضراته ، يعجبون بمعارفه وفصاحته ، ويعيشون بهدى كلامه ، وليس من المتوقع فى هذه الظروف أن تنشأ عنها ثقافة أكاديمية .

وعلى الرغم من تلك الوسائل السطحية ، فقد أدت إلى اكتشاف جمال العالم القديم ، عالم الكلاسيكيات اللاتينية ، وبعد ذلك الآداب والفكر اليونانى .

عرفت أوربا الغربية أفلاطون ، كما أضافت الكثير إلى معلوماتها عن النصوص الكلاسيكية . وبدأ التفكير فيما تربى عليه الأجيال القادمة . وتميزت مدرسة المؤرخين ، والكتاب فى فلورنسا بوعى جديد لتواصل التاريخ بين الماضى والحاضر ، مع النظرة المتوقعة للمستقبل .

ومن خصائص العصر الجديد الكلف بالمجد الشخصى ، الأثرياء والحكام يطالبون الفنانين بتصويرهم ، أو نحت تماثيل لهم ، تخليدًا لذكراهم . والفنانون يقدرون بأن فى هذا تخليدًا لأعمالهم .

تمتعت فلورنسا ، هى وجيرانها بالسلام مدى أربعين عامًا ، ومن سنة ١٤٥٤ حتى غزو الفرنسيين لإيطاليا ، فى حكم وقيادة الملك شارل الثامن . وكانت حركة الهيومانية تستجمع قوة دفعها ، حتى بلغت سرعة باهرة . فعندما كان لورنزو المديتشى ، الموصوف بالأفخم ، يتولى إمارة فلورنسا ، تقدم الأدب والفن بخُطى واسعة . وليتصور القارئ أن تجتمع لتلك الإمارة – وهى ذاتها التى اشتهرت بدانتى وبترارك وبوكاتشيو وميكلانجلو المصور والنحات ، ودوناتلّو ، أعظم النحاتين الباكرين ، وأسماء المصورين : الراهب فيليپوليبى ، وساندروبوتشلىّ . وتضاف إلى القائمة أسماء : ماكياڤلّى الكاتب

السياسى وجيتشارديني المؤرخ ، وفتشينو حامل لواء الأفلاطونية ، والشاعر بوليتسيانو ، أفصح الفصحاء فى اللاتينية ، ولوقا ديلاّ روبيا النحات ، وجيرلاندايو المصور . وكل هؤلاء أبناء فلورنسا ، ومعهم زملاؤهم من خارجها ويعملون فيها : ڤيروكيو النحات ، وپيروچينو ، وليوناردو دافنتشى المصوران . وكانت عبقرية الأمير لورنزو الأفخم ، تجمع بين الشعر والموسيقى ، والحنكة السياسية . ولنا أن نفهم ونتخيل كيف كانت فلورنسا فى ذلك الزمان عاصمة أوربا ، فى الفن والثقافة . .

أما العمارة ، فتركزت مطالعها فى روما ، ثم انتشرت منها فى الدويلات الإيطالية . وما إنْ حل القرن السادس عشر حتى قامت قصورها على ضفاف نهر اللّوار ، بفرنسا ، وفى إنجلترا وفى أسبانيا ، وفى ألمانيا .

انتهى عصر عمارة القلاع ، ومساكن تتحشر داخل أسوار عالية . وقامت بدلها القصور الفسيحة ، لإمتاع ساكنيها ، اتسعت حولها مساحات الأرض الخضراء ، حدائق غناء .

انخفض فى عهد «الإحياء والنهضة» نفوذ الإكليروس ، لا يرهبون رعاياهم بأن إرادة المرء وذكاءه ، تودى بهم حتمًا إلى الخطيئة .

وظهرت الممكنات المخبوءة فى طبيعة الإنسان ، وانطلقت

مواهب الرجال والنساء حرة فى كل مجال ، شاعرين بقوتهم ، الفرد صانع قَدَرِه بذاته ، حر فى عقله وروحه تحكمه كلمة «الڤيرتو» التى جرى العرف الحديث على ترجمتها «بالفضيلة» . إنما فى ذلك العصر كانت تعنى الرجولة الحقة . صاحب «الڤيرتو» هو العارف بما يصنع من داخل ذاته ، فى الفن ، فى الأدب ، فى السياسة . يُحْسِنُ استخدام ما يتاح له من فرص .

والهيومانيون الإيطاليون كانوا أول الأوربيين فى صفاتهم العلمانية ، اكتسبوها من الأدب ، والتاريخ الكلاسيكى . كما أكسبتهم الفصاحة ، وحسن البيان ، والقوام الإنشائى مع أناقة التعبير .

تحرك الرينسانس على أيدى النخبة ، وهذه لا تعنى الطبقة العليا وحدها . فالأرستوقراطية تراعى المحتد ، والميلاد ، والبيئة الخاصة . وإيطاليو عصر الإحياء ، لم يعنوا بهذه الأمور . وعلى عكس ما يتصور ، العصر هو الذى اخترع «الجنتلمان» ، ويظهر ذلك جليًّا من قراءة المؤلف المشهور باسم «كتاب رجل البلاط» (الكورتجيانو) ، تأليف كاستليونى . تكفى قراءته إمعانًا ليتبين القارئ كيف كانت النخبة فى مجتمع النهضة ، تحرص على المعرفة الموسعة لشتى الشئون والأمور . ولم يكن العلمانيون أقل منزلة من الإكليروس ، ولا من الفرسان ، كما كان الحال فى العصور الوسطى .

الشاعر پترارك والهيومانية

كانت أولى رحلاتى خارج باريس (١٩٢٦) متجهة إلى الجنوب الفرنسى لزيارة إقليم الپروڤانص (بالصاد) . ونزلت بمدينة آڤينون . وفى متحف المدينة تطوع الشاب القائم به ليكون دليلى إلى مختاراته من الصور أو التماثيل . وأهم من الزيارة ذاتها كان حديث الشاب عن الشاعر الإيطالى پترارك ، عرفت منه أن الشاعر أقام ردحًا من شبابه فى إقليم الپروڤانص . وكتب فيه أشعار الهيام بحبيبته «لاورا» على البعد . فاشتريت بعد مغادرتى للمتحف ترجمة فرنسية لشعر پترارك فى ديوان مشتمل على قصائد قصيرة تعرف بالكانزونييرى . ألفها باللغة اللاتينية الدارجة ، وهى الإيطالية . وفى سيرة « دانتى وپترارك » تأليف ليوناردوبرونى (١٣٦٩ – ١٤٤٤) الذى يزعم أن (بلاغة الأسلوب لا تكتمل إلا فى اللاتينية) . ولأن أهم تآليف دانتى باللغة الإيطالية ، فإن برونى – مع اعترافه بمواهب دانتى – يفضل عليه پترارك الذى أعاد البلاغة إلى أسلوب اللاتينية بفضل عبقريته ، بعد أن كان الانطفاء قد أصابها بمضى القرون .

علمت من حارس المتحف أن بترارك أقام فى ڤوكلوز ، بموضع اسمه «ايل — سور — سورج» فبادرت بزيارته ، وتمتعت بما أفاضت عليه الطبيعة من سحرها شجرًا ، وخضرة وغديرًا .

واضح أن بترارك اتجه بعاطفته إلى العصر القديم (الكلاسيكى) فى إعجاب شبه رومانتيكى . ولهذا ينظر إليه المؤرخون كأول باعث على الثورة الفكرية التى مهدت لعصر «الإحياء» فيوصف بأول الهيومانيين ، ولكن ما هى الهيومانية ؟

التعريف بها — وهذا غير التعرف عليها — هو : دراسة علوم الإنسانيات ومعارفها . وفى مطلع القرن الخامس عشر (بالإيطالية : الكواتروتشنتو) تطور المبنى والمعنى إلى الثقافة بأوسع معانيها ، مركزة على كل ما جاءت به الحضارة الرومانية التى ترتكز فكريًا على حضارة الإغريق ، من علم وأدب وفلسفة . . وفنون . وهذه فى مجموعها تحقق اكتمال الإنسان وسعادته فى مواجهة اللاهوت والتبحر فيه بما يعرف فى تنظيماته «بالإسكولائية» لا إنكارًا للعقيدة المسيحية ، وإنما لإقامة موازنة عقلانية بين الدين الثاوى والثابت فى ضمير الإنسان ، وبين العناية بالعصور الكلاسيكية فى حضارتها التى تعنى بشئون الإنسان فى دنياه .

فالهيومانية هى ممارسة وتحرٍّ عمَّا قدمته حضارة اليونان والرومان . وحتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، كانت الجامعات الأوربية الكبرى تحفل بتكوين شبابها على أساس من الإنسانيات .

والإنسانيات موصوفة بدراسة اللغتين : اليونانية واللاتينية ، وأعمال أدبائها وفلسفتها ، وعلمائها ، وفنونها التشكيلية ، عمارة ، وحفرًا ونحتًا وتصويرًا وما يمكن التوصل إليه من علم بالموسيقى مربية الروح ، وبالجمناستيق مقومة للجسد .

والملاحظ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦) أن عددًا هامًّا من كليات الآداب أضافت إلى اسمها «العلوم الإنسانية» .

وصف الهيومانية واحد من عظمائها ، جوڤانى پيكوديلا ميراندولا ، قال : «فى هذا التاريخ الماضى ، مما حرك روح الإنسان ، وفتح رئتيه فأحياه ، لاشىء يمكن أن يموت من إيمان ، ولسان ، وعمل ، وفنون وآداب ، وعلوم وفلسفة . وقد وضع أهل القرون الغابرة فى هذه المجالات علمهم ، وسعيهم ، وإيمانهم ، وعواطفهم الطيبة» .

وليس معنى هذا أن نتجاهل العصر الوسيط ، أو نمتهن فكر أهله . ولقد تغذى هؤلاء بالأدب الرومانى ، ومن الحق القول مثلاً ، بأن الراهبات فى ذلك العصر كن يقرأن شعر «أوڤيد» مهندمًا ، وحكايات حرب طروادة ، وإنياس (بطل «الإنياذة» ملحمة فرجيل) فى تاريخ روما .

وأحسبنا لا ننسى شارلمان (شارل الأكبر) ملك الفرنجة ، وفيما بعد إمبراطور الرومان (٧٤٠ - ٨١٤) . وهو حفيد شارل مارتل الذى أوقف زحف العرب والمغاربة فيما يصفه التاريخ الإسلامى

بمعركة «بلاط الشهداء» ، على مقربة من پواتيه ، فى وادى نهر اللوار .

فى عام ٧٧٧ استنجد حاكم برشلونة المسلم (ابن العربى . وهو غير ابن عربى طبعًا) بالعاهل المسيحى شارلمان ، ليعينه ضد الخليفة فى قرطبة . فعبر شارلمان وجيشه جبال البيرينيه وحاصر مدينة پامپيلونا المسيحية ، وعامل أهل الباسك (الباشكونس) المسيحيين معاملة الأعداء ، وتقدم حتى سراجوسا (سرقسطة) . ولكنه لم يلق أثرًا لثورة المسلمين على خليفتهم ، التى وعده بها ابن العربى ، فاضطر إلى التقهقر ، إذ أدرك أنه لا يستطيع بجيشه أن يتحدى خليفة قرطبة . وفى رحلة العودة ، هوجم فى ممرات الجبال ، وخاصة فى ممر «رونسڤال» بقوة من الباشكونسى قضت على جيشه ، وقتل فيها «هيرودلاند» وهو المعروف فى الأدب الفرنسى القديم باسم «رولان» ساعد شارلمان الأيمن . . وألفت الملحمة بعنوان «شانسون ده رولان» بالفرنسية القديمة ، بعد ثلاثمائة عام من مأساة ممر «رونسڤال» .

نجح الإمبراطور شارلمان فى حروبه ، ولو أنه كان فى حقيقة نفسه رجل سلام يعشق الإدارة ، لا الحرب . وتعتبر «أوامره العالية» الخمسة والستون أهم مجموعة تشريعية فى العصر الوسيط . وبها شرع للزراعة والصناعة والمالية والتربية . والشئون الدينية ودستور الحكم .

هذه خلاصة للعشر صفحات التى خصصها مؤلف كتاب الحضارات «ويل ديورانت» لشارلمان . وكنت أبحث خصيصًا عن

حكاية الساعة التى بعث بها الخليفة هارون الرشيد للإمبراطور الجرمانى ، فلم أعثر لها على أثر ، إلا ما يلى :

« وفى سبيل حماية إمبراطوريته الواسعة ، من اعتداء بيزنطة ، عقد عهدًا مع هارون الرشيد ، الذى ختم اتفاق الدولتين الكبيرتين بإهداء عدد من الأفيال ، مع مفاتيح المقدسات المسيحية ببيت المقدس » .

ولكنى لاحظت وصفًا للمؤلف الأمريكى الكبير (ديورانت) دلنى على صدق حكمه ، قال : « ينبغى ألا نغالى فى الصفات العقلية لهذا العصر (العصر الوسيط) . فإن هذا الإحياء الأسكولائى كان صحوة أطفال ، إذا قورن بنضوج الثقافات المعاصرة فى القسطنطينية وبغداد ، وقرطبة » .

ولم تطل إمبراطورية شارلمان بعد وفاته فى السنة السابعة والأربعين من توليه ، والسنة الثانية والسبعين من عمره .

وعندنا غير هذا مما يصحح التسمية « العصور المظلمة » قول البابا جريجوار الأكبر إن دراسة الفلسفة اليونانية والآداب الكلاسيكية كانت عونًا كبيرًا على تفهم « الكتاب المقدس » . ومن عظماء العصر الوسيط آباء الكنيسة الكبار : سان جيروم (هييرونوس) ، والقديس يوحنا فُمّ الذهب (خريسوستوم) .

والآثار الدينية للعصر الوسيط كنائس وبيع تشهد بأصالة فن

العمارة ، وشخصيتها فى الأسلوب العجيب الذى لفت نظرى ، صبيًا ، وأنا أشاهد صور الكنائس المبنية على الطراز القوطى (جوتيك) .

كما تفهم علماء ذلك العصر أرسطو . وقد جعل دانتى اليجييرى موضعه خارج الجحيم هو ومفكرين آخرين ، واختار الشاعر ڤرجيل الرومانى الوثنى دليلاً له فى ارتياده للجحيم (الجزء الأول من الكوميديا الإلٰهية) .

وكان أهل العصر الوسيط يعتبرون أسلوب سيسيرون منتهى البلاغة فى اللاتينية . وثَمَّة من المؤرخين من يصف الشاعر پترارك بالجد الأعلى للهيومانية ، كما يوصف الفيلسوف الهولندى إيراسم : بابا الهيومانية .

أقام پترارك مكتبته بجهد ناشط ، من شعر ڤرجيل ، وملحمته «الإنياذة» إلى كتابات سيسيرون ، وإلياذة هوميروس بلغتها الأصلية . وكان پترارك يجهل اللغة الإغريقية ، فيقول : «إن هوميروس إلى جانبى ، ولكنى لا أعرف كلامه ، فأقبِّل صورته من حين إلى حين ! » .

وپترارك ، باستثناء أشعار شبابه قرضها باللغة الإيطالية ، ألف أشعاره ، وحرر رسائله بلاتينية فصحى ، وله بهذه اللغة ملحمة لم تتم بعنوان «إفريقيا» وكتاب عن «مشاهير الرجال» .

يقول ويل ديورانت فى المجلد الرابع لموسوعته المسماة «قصة الحضارة» :

«كان عقل فلورنسا أسير الهيومانية ، تحول من التدين البالغ إلى الفلسفة ، أنزلها من السماء إلى الأرض ، لتكشف للجيل المتدهور عن الفكر الوثنى وفنونه . ووصف رجال العلم والأدب والمهتمين بالكلاسيكيات ، بالهيومانية . وقام عشرة من الهيومانيين ، قبل سقوط بيزنطة فى أيدى العثمانيين بخمسين عامًا ، بزيارة أرض الإغريق ، وعاد أحدهم إلى فلورنسا بثمانية وثلاثين ومائتى مخطوط ، فيها مسرحيات إسكيلوس وسوفوكليز . واقتنى الثانى من هناك نصوصًا لهيرودوتسى ، وتوقيد يدس ، ويوليبيوس ، وديموستين ، وأرسطو ، وسبع درامات لأوريبيدس . وبما أن الكثرة من هذه الكتب يونانية اللغة ، فقد اشتد الطلب على أرض الإغريق لتوفد إلى إيطاليا معلمين لتلك اللغة .

درست المخطوطات ، وضُوهيت بعضها بالبعض . واختص فريق من الهيومانيين بشرح محتوياتها . واستقر فى إيطاليا يُوَنَّس بصاريون ، رئيس كنيسة نقيا بآسيا الصغرى ، وساعد فى تدريس اليونانية . كما انتقل الكثير من مواطنيه إلى المجتمعات الإيطالية كمدرسى للغة وآدابها وفلسفتها .

ولم تنتظر تلك النصوص العظيمة تخرج الدارسين للغة ، بل بادر بترجمتها كل من حذق اليونانية . وكان هذا بالذات عصر اكتشاف

أفلاطون ، فأعجبوا بحواره ، ورأى بعضهم أنه يفوق أمثاله فى درامات إسكيلوس وزميله . وقدّروا بإعجاب ما جرى فى حياة سقراط من نقاش عميق حول مسائل العقيدة ، والشئون السياسية . وانتهوا إلى أنّ الأفلاطونية ، مغلفة بسحاب أفلوطين ، فلسفة تصوفية ، يسرت لهم السبيل إلى وفاقها بالمسيحية .

وعندما رأى كوزيمو المديتشى (١٤٤٥) حماس الدارسين لأفلاطون أنشأ فى ذلك العام الأكاديمية الأفلاطونية ، وكلف العلامة مارسيليو فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) برئاستها ، فهو صاحب الرأى بأن التعاليم الأفلاطونية أساس وتوكيد للعقيدة المسيحية ، فكرس نصف عمره لترجمة أعمال أفلاطون .

ولا تَحْسَبَنّ الإقبال على كنوز الحضارة الإغريقية أوقف الإعجاب والمتابعة لآثار الرومان ، وهم الأقربون ، فتمكنوا من محاكاة بلاغة سيسيرون ، وشعر فرچيل وهوراس .

ظلت الهيومانية حية فى فلورنسا ردحًا من الزمن ، وحينما انتخب واحد من أسرة المديتشى للكرسى البابوى فى روما ، انتقلت إلى روما ، ومنها انتشرت فى الإمارات الإيطالية وكان من أثرها ، لقرن من الزمان ، السيطرة على الحياة العقلية والروحية لغرب أوربا .

وينبغى أن تتذكر دائمًا رنين «الأستطيقية» (علم الجماليات) فى مجالات الهيومانية ، ففى كتاب لفليبى ڤيلاّنى (نهايات القرن الرابع

عشر) يقول بأن مجد فلورنسا فيمن عشقوا فَنّ المصور تشيمابوى الذى قارب الطبيعة فى لوحاته ، وكان فتحًا لباب الفن الجديد . وجاء بعده چيوتو ، ذو الفضل العميم فى شهرة فن التصوير . وفى القرن الخامس عشر ظهر الصائغ والنحات ، والاختصاصى فى صب البرونز ، والمعمارى لورنزو جيبرتى (١٣٧٨ – ١٤٥٥) ولد وختم حياته بفلورنسا . اختارته نقابة التجار الفلورنسيين ليصنع بوابة من البرونز ، انتهى من نحتها وصبها سنة ١٤٢٤ ، وأعد غيرها فيما بعد . وطلب منه إعداد بوابة ثالثة تمت عام ١٤٥٢ ، هى المقامة فى مبنى المعمودية أمام «الدومو» أى الكنيسة الرئيسية فى فلورنسا . ما أكثر ما عدت للتأمل فى هذه التحفة العظيمة طوال إقامتى بمدينة «الحسن والجمال» . يتألف إنجازها من تربيعات تضم كل منها منظراً يمثل شخصيات ووقائع من «العهد القديم» (القسم الأكبر فى الكتاب المقدس) كأنها لوحة تصوير . ولكن من البرونز . وهذا عمل مدهش فعلاً ، استغرق إتمامه خمسين عامًا «بالتمام والكمال» وأظن القارئ يتخيل ، كما أتخيل ، أن كل تلك الألواح المحفورة ، تحتوى على نحت بارز بروزاً خفيفاً من سطح الخلفية (باه – روليف) – يتم صب البرونز ، وتظهر ضلفتا الباب كعمل فنى يثير الإعجاب بضخامته ، وجمال اللوحات البرونزية التى تزين كل ضلفة طولاً وعرضاً . وصفها ميكل أنجلو وكأنها «بوابة الفردوس» .

وليون باتستا ألبرتى (١٤٠٤ – ١٤٧٢) المعمارى المولود فى جنوا ، من أشهر فنانى «الرينسانس» عمل فى فلورنسا منذ سن

الرابعة والعشرين . نسب ذيوع فن التصوير إلى المعمارى برونلّيسكو . وألحق أن دوناتلّو النحات ، وجيبرتى المعمارى ، هما الأصل فى إحياء الفن التشكيلى .

وتمت صحوة الأدب ، فقال فتشينو ، رئيس الأكاديمية الأفلاطونية : « ذلكم دون مراء هو العصر الذهبى الذى أعاد إلى الأضواء : البلاغة ، والتصوير ، والعمارة ، والنحت والموسيقى . وحدث كل ذلك فى فلورنسا من أهلها ، أو من الدارسين فيها .

وفى منتصف القرن السادس عشر ، وضع ڤازارى المصور والمعمارى (١٥١١ – ١٥٧٤) تاريخ الفن الإيطالى فى كتابه « سير عظماء المعمار ، والتصوير ، والنحت الإيطالى » . ڤازارى هو الذى وسم العصر بكلمة « ريناتشيتا » ومعناها « الميلاد من جديد » . وقسم مؤلفه الهام إلى ثلاث حقب :

الأولى تبدأ من منتصف الثالث عشر حتى فنانى توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا .

والثانية طوال الخامس عشر (برونلّيسكو ، مازاتشيو ، دوناتلّو) وهم الذين تمّ لهم التوفيق فى محاكاة الطبيعة .

أما **الحقبة الثالثة** فزمانها القرن السادس عشر ، حقبة الاكتمال ، حيث يقول المؤلف : « يمكننى التوكيد واثقاً بأن الفن فى خلالها حقق كافة ممكناته فى تقليد الطبيعة ، وارتقى إلى أعلى عليين ، مما يجعلنا

نتوقع فى وجل ، هبوطه بدلاً من أن يأتينا بتقدم جديد» .

هذا ما كان من أثر الهيومانية على أوربا منذ مطالع القرن السادس عشر فإن البلاد عَبْرَ جبال الألب أقرت واعتمدت الهيومانية الإيطالية فى النهوض بكل الفنون . وما أصدق عظيم الفن الألمانى ، المصور «البريخت دورير» حين قرر أن «التصوير الذى أهمل أمره حتى ضاع فى خلال ألف عام تلت انحلال الإمبراطورية الرومانية ، واستمر الضياع حتى هب الإيطاليون منذ مائتى عام وأعادوه إلى الضياء» .

الرينسانس والعتاقة

(إيضاحات لابد منها)

من الصعب تصور اختفاء آثار الإمبراطورية الرومانية . وقد سبقت الإشارة إلى أن الراهبات فى العصر الوسيط كُنَّ يقرأن شعر أوفيد (مهذباً) ، وقصة طروادة وإنياس فى مترجمات المؤرخ اللاتينى الكبير «تيتوس – ليفيوس» ويمكن القول بأن أبطال العصر الكلاسيكى تحولوا إلى فرسان العصر الوسيط ، مع محاولات بعض الهيومانيين المتقدمين إلى تصحيح شكلى . والأهم كان اهتمام پترارك بجمع المخطوطات ، حيث عثر على بعض أعمال المؤرخ الرومانى «تاسيتوس» وبعض رسائل «سيسيرون» وبعض درامات «بلاوتوس» ، بالإضافة إلى بقايا الفكر الإغريقى . . وكان رسل الكاردينال بصاريون ينتشرون فى عالم البحر المتوسط ، ويجرون البحث عن مخطوطات إغريقية . وسافر يوحنا لاسكاريس إلى الشرق موفداً من المديتشيين للعثور على مخطوطات بيزنطية . فعاد عام ١٤٩٢ بأكثر من مائتى عمل يونانى . . وتضخمت مكتبة الڤاتيكان – فى حكم البابا نيقولا الخامس ، سنة ١٤٤٧ – من ثلاث مخطوطات يونانية حتى بلغت ٣٥٠ مخطوطة عند وفاة هذا البابا ، عام ١٤٥٥ .

وحاول توماس الإكوينى التوفيق بين المسيحية والأرِسْطُوريّة ، دون معرفة باللغة اليونانية . فقرر واحد من أعيان البندقية العدول عن الترجمة اللاتينية لأرسطو ، وضرورة العودة إلى الأصل اليونانى . ليطمئن الباحثون الأوائل . وبذلك يتحقق إصلاح الترجمات العربية ، والدومنيكانية ، فتحرر أرسطو من «المشّائية الإسكولائية» .

أما أفلاطون فلم يكن معروفاً أكثر من اسمه ، واكتشفته الهيومانية فى عصر الرينسانس . ويُعد هذا مجداً من أمجاد العصر المنير ، وبفضل الفلورنسيين . وكانت أصول الأفلاطونية قد وصلت كاملة إلى فلورنسا ، ففيما بين عامى (١٤٣٩ و ١٤٤٠) حضر إلى فلورنسا الأستاذ اليونانى الكبير يوحنا لاسكاريس ، وبعث الحماس لدراسة المحاورات الأفلاطونية ، وأثار هذا نقاشاً على طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حول المفاضلة بين أرسطو وأفلاطون . وانضم الأمير المديتشى إلى الأفلاطونية ، بفضل شاب لم يتجاوز العشرين عاماً هو مارسيليو فتشينو . فخصص له ڤيلا فى ضاحية كاردچى أمدها بالمال والمخطوطات ليركز نفسه فى فلسفة أفلاطون . وكان هذا بدء أكاديمية المديتشى المشهورة . وعند وفاة الأمير سنة ١٤٦٤ كان فتشينو قد أتم ترجمة محاورات أفلاطون ، وتمت أعماله الأخرى بعد أربع سنوات .

ولم تكن اللغة العبرية معروفة لدى الغربيين فى العصر الوسيط . وكان للهيومانية الفضل الأكبر فى البحث عن الأصول بالعبرية ،

وخاصة أن العهد القديم» من الكتاب المقدس عبرانى اللغة . وانتهى الأمر إلى إثراء المكتبة البابوية ، وكانت الأولى فيما حوت من أعمال اليونان واليهود ، وسيجىء كلامى عن العِبْرِية والعَرَبيّة فى الفصل الذى أخصصه للهيومانى الكبير بيكوديلا ميراندولا . (كتب جارجانتوا ، بطل قصة رابليه «حياة العظماء القيمة» ١٥٣٤ إلى ولده : «أود وأريدك أن تدرس اللغات دراسة طيبة ، اليونانية أولاً ، واللاتينية ثانيًا ، والعبرية ثالثًا» . فلا عجب أن حرص عالَم الهيومانزم على دراسة هذه اللغات فى جامعات : لوڤان (١٥١٧) — وأكسفورد (١٥١٧ ، ١٥٢٥) وباريس (١٥٣٠) . وفى هذه المدينة الأخيرة ، تحولت الأكاديمية المثلثة (كما كانت تعرف) إلى «الكوليج ده فرانس» على يد الملك فرانسوا الأول .

وكان لجوتنبرج ، باختراعه الطباعة ودخولها باريس (١٤٧٠) الفضل فى وصول الهيومانزم إلى هناك . ومن الناحية الفنية كان الاهتمام بالآثار الرومانية القائمة فى الشمال والجنوب الإيطالى ، وصقلية ، هو الموجه للتطورات الفنيّة فى الرينسانس . وأعظم موضع لها ، بطبيعة الحال ، هو روما . وقد كان كافياً فى زيارة چوفانىّ ڤيلانى لروما ، أن يعتزم التحول إلى مؤرخ ، كما كان اهتمام البابوات بهذه الآثار عظيمًا ولدينا عن رافاييل (١٥١٨ — ١٥١٩) كلمة إلى البابا ليون العاشر يرجوه العناية بها . وتعدى الحفاظ إلى الأعمال والبحوث الأثرية (الأركيولوچيا) ، فاكتشفت آثار وأعمال هامة أقيمت لها المتاحف : منها «أبولّو البلڤيدير» ، وتمثال اللاوكون ،

و «ڤينوس الڤاتيكان» . . . إلخ واشتهرت أسرتان بحيازة آثار بحثوا عنها وصرفوا عليها وحملوها إلى قصورهم : أسرة فارنيزى ، اجتمعت لها ثلاثة متاحف أحدها هو المشهور إلى اليوم باسم «الفارنيزى» . ثم أسرة ديلاڤّاليّ . ولم تتأخر فلورنسا فى هذا المجال ، وكان الفضل للمديتشى . هذا واكتشاف روما القديمة يعود إلى الرينسانس ، كما يعود إليها نشر الثقافة والفن فى قارة أوربا .

برونلّيسكى مبدع عمارة الرينسانس . كان نموذجه ودليله : آثار روما . وهناك شيء من النقد موجه إليه ، وهو أنه قلّدها دون النفاذ إلى الروح المحركة لها . أما ألبيرتى (١٤٠٤ – ١٤٧٢) وبرامانتى (١٤٤٤ – ١٥١٤) فقد حرصا على التعمق والتَّبَحُّر . إنّ ألبيرتى دارس تشبع بالفكر الأفلاطونى ، فتمكن بمؤلفه الشهير – إلى جانب مجلدات ڤتروڤيوس فى «العمارة» (التى طبعت لأول مرة عام ١٤٨٦) – من أن يصبح مرجعًا نموذجيًا ، أو مسبحةً فنيّة لعصر الإحياء . وإذ كان ألبيرتى موسيقيًّا فقد نقل الأساس الرياضى لفن الموسيقى إلى فن العمارة . فكانت الأفلاطونية هى مصدر «الإحياء» فى إبانّة .

وتبقى فاتحة بسيطة شجعت المصور والنحات على إغفال محظورات العصر الوسيط ، والعودة إلى احترام تصوير الإنسان عاريًا ومستورًا . وليس المعنى أن فنانى الرينسانس خرجوا على قاعدة العرف الدينى . إنما ذَكَّرهُم النحت الإغريقى بما يقرءون فى العهد القديم (سفر التكوين) عن خلق آدم وحواء فى جنة الخلد . فلا وجه لرفض

العرى فى التصوير والنحت ، وقد خرجت من عبقرية الإغريق منجزات فنية أثبتت عظمتها فى تمثل الجسم مكشوفًا . وأعادت صورة «الپريما ڤيرا» [الرّبيع] لبوتيتشيلّى مكانه ڤينوس وفتنتها فى عالم الفنون . بعد أن كانت فى العصر الوسيط لا تظهر إلا كتلميذة «بنت ناس» ، أى نعم ، هل نسى فنان الرينسانس أسطورة خلق ڤينوس من قلب صَدَفَةٍ بحرية ناصعة البياض ، إلا أن تلعب عليها الأضواء فتشع ظاهرة قريبة من قوس قزح ؟

لم تكن فكرة الارتداد إلى العصر الكلاسيكى تمثل رجعة فنية ، وأمامنا آثار الرينسانس فى متاحف العالم ، دليل أصالته فى موقع أهله وحياتهم ، فكانت لهم شخصيتهم فى العمارة والتصوير والنحت ، والأدب . ثم إن الإغريق لم يعرفوا التصوير الزيتى ، وإن كانوا يغَطّون تصاويرهم بطبقة زيتية شفافة (الورنيش الأنكوصطبق) ولم يخرج من اليونان ولا من الرومان عمل يقارن بصورة «يوم القيامة» لميكل أنجلو ، وهو «فريسكو» على حائط مصلاة (السستينا) بالڤاتيكان ، لا فى فنها فحسب ، بل فى مساحتها ، وقد غطت سبعة عشر مترًا فى ثلاثة عشر .

ومثال من أصالة أدب الرينسانس ، ملحمة الشاعر الإيطالى لودوڤيكو أريوستو (الأربوست) : «رولان غاضبًا» ، فهذه ملحمة على النسق الكلاسيكى ، ولكن شخصياتها وموضوعها واضح الأصالة فى شعر العصر الوسيط ، وقصص الفروسية ، والحواديت الشعبية . ورولان واحد من نبلاء شارلمان وفوارسه . وشاعر

الرينسانس البرتغالى : (١٥٢٥ - ١٥٨٠) «كاموينز» فى ملحمته «اللويزياذة» ، مع استيحائها واستعارتها لفن «الإنيادة» ، تأليف (شاعر اللاتين الأكبر ڤرجيل) ، فإن موضوعها فتوحات الملاحين البرتغاليين العظام بقيادة ڤاسكوداجاما عبر الأطلسى والهندى . واشتهر كاموينز بأشعاره الليريكية فى قالب «الصونتّه» ، ولم تك هذه معروفة فى العصور الكلاسيكية ، وإنما نشأت فى عصر الإحياء .

فلورنسا ومؤرخوها

توصف فلورنسا فى التاريخ الحديث بمدينة الفطنة ، ولا مكان أشبه بأثينا (فن العصر الكلاسيكى) من فلورنسا : قدرة أهلها على التفكير فى عقلانية نادرة ، وإدراك وتمييز ، وحذق ، وبراعة ، ولطف المزاج – وأهلها لا يشعرون وحدهم بهذا التمييز. فأهل روما ونابولى وإقليم اللومبارديا يشهدون لها بكل هذا ، ويعترفون بتفوقها فى الأدب والفنون والقانون والفلسفة والمعارف العامة .

فعندما ينتهى الإنسان من صراع الحياة ، وتطمئن غريزته إلى البقاء ، حين ذاك تبدأ دوافع الحضارة فى التحرك ، وهى ثلاثة : حب المال ، وما يحققه لصاحبه ، والتطلع بمعنى الرغبة فى المعرفة بالرؤية والأسفار ، أو بالقراءة ، والتعرف على الإنسان من بين المخلوقات . وثالث الدوافع وأقيمها : حب الجمال . وكل الفنون ربيبة الحسن والكمال ، وكلمة الفنون هنا تعبر عن المعنى الأصلى فى لغتنا العربية . فلا تعجب أن نضع هنا التجارة والملاحة ، والفلسفة والعلوم والتربية ، والعمارة والنحت والتصوير ، والموسيقى ، والشعر

وهو زينة الآداب بلا منازع ، وفى كل هذه الفنون ما يرفع من شأن ابن آدم ويثرى حياته .

ومن القليل أن تجد أُمّةً تملك كل هذه النعم ، وهى القلة التى تتصدرها حضارة مصر القديمة ، وأندادها فى العلم القديم – وأعجب ما فى فلورنسا وعصرها الزاهر أنها أشبهت أثينا : اجتمع لهما حب الجمال ، والمال ، والانفتاح على العالم ، بالتطلع إلى المعرفة .

وجولة متمهلة مدى بضعة أيام كفيلة وحدها لإثبات هذا ، ولسنا بحاجة إلى التكهن بما كانت عليه فى فترة عزها . كنائسها وقصورها ، وتماثيلها ، ولوحات صورها . ولقد اختار المؤرخ البريطانى سيموندز مؤرخيها وكتّاب حولياتها لتوكيد هذه الحقيقة .

تطالعك مؤلفاتهم على صور تفيض بالحياة لعظماء تاريخها . وأهم من هذا أن تعجب بما فيها من روح النقد ، وهوية التجارب . المؤرخون الفلورنسيون نشئُوا وتربوا على التاريخ الرومانى والإغريقى ، وعركوا الحياة فى مجالس المدينة وفى بلاطات الأمراء الأجانب .

يصدرون أحكامهم من مستوى رفيع – بعد أن يخلصوها من مشاكل الوقائع المعاصرة بفلسفة الماضى ، وبمعارفهم الحاضرة . ويستحق مؤرخو فلورنسا أن يعتبروا من مكتشفى المنهاج التاريخى الحديث – فهم أول من أدركوا عدم الاكتفاء بالدولة وحدها ، بحروبها ومعاهداتها ، بل أن ينقدوا ظروف حياة الأمة وروحها . فهذا هو

موضوع البحث التاريخي . أضأل التفاصيل قد يكون لها قيمة تعلو على كل القيم ، سواء كانت تختص بسيرة الأشخاص ، أو بالاقتصاد أو بالمجال الحيوى (الطبوغرافى) . وبينما كانت أوربا تجهل الإحصاءات أو غير مجهزة للنفاذ إلى ما تحت سطح الحوادث ، إلى المنابع السِّرِّيّة للتصرف والسلوك ، فقد تكونت فى فلورنسا مجموعة من المؤرخين العلميين (الأكاديميين) يهتمون بفحص السجلات العامة ودراستها ، والأوراق الرسمية بكامل أرشيفها ، والمذكرات الخاصة بذوى النباهة والمعاينة والترصد . وهؤلاء المؤرخون أعدوا أنفسهم بالاطلاع الفسيح على الفلسفة عند أرسطو سياسية أو أخلاقية ، وعند أفلاطون وسيسيرون وتاسيتوس ويوليبيوس ، وتيتوس – ليڤيوس . ثم هم حرصوا على الاتصال بمن يعرفون ماجريات الوقائع فى كل باب من أبواب الاستقصاء التى تعرض لهم . .

ويمكن القول بأن طبع الفلورنسيين المتغير ، عرضهم للثورات كما نمَّى ذكاء مؤرخيهم الكبار .

وهذه بعض الأسماء : چوڤانى ڤيلاّنى ، ماكياڤيلِّى ، فرنشسكو جيتشارديني وبيتّى . واختارُ من بينهم جيتشارديني ، لأنى سأخصص فصلاً لماكياڤيلِّى .

ماكيافيلِّى (١٤٦٩ – ١٥٢٧) جيتشارديني (١٤٨٣ – ١٥٤٠) بيتىّ (١٥١٩ – ١٥٨٩) .

يعتبر جيتشارديني أهم مؤرخ لفلورنسا باتفاق أكثر من وضعوا كتبًا عن «الرينسانس» ، كان جيتشارديني محاميًا قديرًا ، ومتكلمًا بليغًا ، أوفدته «السنيوريا» (مجلس الحكومة) – سفيرًا فى بلاط فرناندو ملك أَرَاجُونَا ، وعينه البابا ليون العاشر حاكمًا على ريچيومُودينا ، ثم «پارما» مضافة إليها . وأقامه البابا كليمنتى السابع ، نائبًا على إقليمّ رومانى ثم رقّاه قائدًا لجيش البابوية ، وعينه بعد ذلك حاكمًا على بولونيا . واستقال من هذه الأخيرة لدى وفاة كليمانتى السابع ، لأنه فضل أن يخدم أمراء فلورنسا من أسرة المديتشى ، وعين عضوًا فى مجلس الشيوخ إلخ . . وعندما جاء زمن التقاعد سكن فى ڤيلاً يملكها (١٥٣٧) ، وقضى فيها بقية حياته يكتب تواريخه ، وأهمها «تاريخ إيطاليا» .

المؤرخ البريطانى سيموندز يهوى المقارنة فى تقديره النقدى ، فيقول بأنه فى هذا الكتاب يشبه تيتوس – ليڤيوس فى تصويره لبعض شخصيات تاريخية فى عصره ، ويصفه بأنه فنان ذو براعة . وفى هذا يشبهه بالمؤرخ الرومانى الأشهر تاسيتوس . وبفضل جيتشاردينى يملك القارئ عملاً تاريخيًا عظيم القيمة عن النصف الأول من القرن السادس عشر فى إيطاليا .

والغريب أنك لا تحس بأى أثر من تحمس عند الرجل الرزين ، فلا شخصية خيرة أو شريرة تثير فيه فزعًا أو تعنيفًا . ولا مكان فى قائمته لبواعث نفسية تختص به . وقد يظهر شيئاً من القبول بما فيه خير المجتمع . المهم أن العقيدة والضمير لا موضوع لهما فى البواعث

الإنسانية . إنما الطمع ، والحساب ، والحسد هى التى تحرك العَالَم حسب تجارب المؤرخ الكبير : القوى يدوس الضعيف ، والمخادع هو الذى يحتوى البرىء ، والغش هو الفائز ، وهذا أمر طبيعى فى نظره ، فلا المؤلف المؤرخ غاضب ، أو بائس . إنما هو حريص هادئ فى مواجهة الخطر الذى يُهَدِّد بَلَدَه .

ويرى المؤرخ سيموندز أنه بهذه القدرة غاب عنه الشعور بعظمة العصر أو رؤية القوى المولدة لشيء جديد . فلم يتوقع نتائج الانشقاق الدينى الذى سيحدثه مارتن لوثر . ولو أنه أدرك الأثر المبادر على السياسة الايطالية من الغزو الفرنسى . ومع أنه فى نقده للبابوية ، توقع نتائج محاباتهم لأقاربهم بالإضافة إلى أطماعهم الدنيوية ، فإن جيتشاردينى لم يحس بضرورة التصحيح النفسانى والدينى فى سبيل الإصلاح .

وفى سنواته العشرين الأخيرة ، قدم المؤرّخ كتابيه : «حوار فى نظام فلورنسا» ، و«الحكاية الفلورنسية» . وهما من أحسن ما كتب . لأنه وَضَعَهُمَا كمذكرات شخصية ، ليست للنشر . فكان صريحًا بلا تحفظ . انكشفت فيه حكمته السياسية بقوة .

حلل العسف المديتشى ، نتيجة إهمال تلك الأسرة لمبادئ العدالة ، وفى طريقة توزيع الضرائب ، لم تكن خطة المديتشى تتعدى الاستحواز على السلطة دون نظر إلى أن هذا يسحق روح الشعب ، ويطفىء حمية الجيش . وفى رأى المؤرخ الصارم أن

العلاج الوحيد لمصائب الأسرة الظالمة هو السم أو الخناجر ! ! وإلا فإن أقل شرارة تبقى منهم قديرة على إثارة المتاعب . وأبدى جتشارديني رأيه فى أوضاع الحكم الثلاثة : حكم الفرد ، وحكم المجموعة المختارة ، وحكم الشعب . وبعد أن اختار حكم المجموعة المختارة ، انتهى إلى أنها أضل الثلاثة سبيلا . ويبدو من إعجابه بدستور البندقية (فينيسيا) أنه يعنى تفضيل العمل بثلاثة أوضاع الحكم معًا . وهذه «يوطوبيا» .

وأهم ما يعجب قارئ كتابه الآخر «تاريخ فلورنسا» هو الصور القلمية التى يقدمها للدوق لورنزو المديتشى ، وللراهب سافونارولا ، وللبابا إسكندر السادس ، ثم لتشيزرى بورچيا ، وما اقترف من قبائح وجرائم شنيعة . وتحليله لها ممتاز . ويرى سموندز أنّ مرونة جتشارديني ، وحكمته ، وخبرته تظهر فى هذا الكتاب .

فلورنسا المدينة والإمارة

چاكوب بوركارت المؤرخ السويسرى خصص فصلا لمدينتى فلورنسا وڤنيسيا. قال عن الأولى: «أعلى شخصية سياسية، والتنمية الكاملة على اختلاف وجوهها اجتمعت فى تاريخ فلورنسا المدينة، والإمارة الجديرة بأن توصف كأول دولة بالمعنى الحديث فى العالم. فيها ترى شعبًا بأجمعه – فى حكم الأمراء – يعنى بأحوالها كأسرة، بالروح الذى يجمع بين الإنصاف والرقة. وحب الجمال، والطموح إلى الخلق والإبداع. يغير ما شاء له التغيير – الوضع السياسى والاجتماعى، ولا يتوقف عن وصفه والحكم عليه، وهكذا غدت فلورنسا بلد النظريات والمذاهب السياسية والتجارب، والتغييرات. سبقت، هى وڤينسيا كل الدول فى الإحصائيات، والدراسات التاريخية بالمعنى الحديث. يعود هذا إلى نظرتها لروما القديمة ومعرفتها بمؤرخيها. ويعترف مؤرخ فلورنسا الكبير چوڤانى ڤيلاّنى بأنه عقب حضور يوبيل مدينة روما سنة ١٣٠٠ استقرت عنده فكرة عمله العظيم، فشرع فى كتابة تاريخ فلورنسا. وختم كتابه بهذه الكلمات «روما تنحدر، أما بلدى فهو فى صعود. فلورنسا تتأهب لتحقيق

أشياء جلى ، ولهذا عزمت على متابعة تاريخها حتى عصرها القائم .

وانبرى بوركارت لذكر مآثر فلورنسا فى شتى الميادين : أحزابها السياسية ، وصراعاتها . وجعل من دانتى اليچييرى سياسيًّا كبيرًا ، دانتى ابن فلورنسا وضَحِية أزماتها الداخلية . دانتى الذى أنضجته مدينته ، كما أنضجه نفيه نهائيًّا إلى « رافنّا حيث مزار مدفنه .

فلورنسا تقدمت فى الصناعة والتجارة ، ومنها خرج علم الاقتصاد السياسى . فإذا اتجهنا إلى العناصر الأساسية فى حضارتها التى رصدتها الإحصائيات فإننا نجمع بين الاقتصاديات بكل معانيها ، وبين الفن والأدب والبلاغة ودراسة فن العمارة الكلاسيكية عند اليونان والرومان ، وكان السياسى الشهير نقولا ماكيافيلّى ينظر إلى مدينته كأنها كائن حى .

فى غضون عام ١٤٣٠ كان أغلب العصر الكلاسيكى (الإغريق والرومان) قد تمّ العثور على مخطوطاتهم ، والبحوث مستمرة ، وفى مطالع القرن الخامس عشر أصبح تعلّم اللغة الإغريقية ميسرًا ، ولو أن الأغلبية كانت فى صف اللاتينية . وأهم من هذا أن التنشئة والتربية والتعليم سلكت مسلكًا عاش فى غربى أوربا حتى أوائل هذا القرن ، وربما حتى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . وهو وضع اللغات الأساسية وهى اليونانية واللاتينية ، بعد اللغة القومية ، ثم دراسة الفلسفة والبلاغة والموسيقى ، مع اعتبار التربية البدنية شيئًا هامًّا . فإن كانت الموسيقى مربية للمشاعر « فالجمنا سطيقى تقوم الجسد ، ووصف

هذه الدراسات بأنها التربية الهيومانية » ، تعد المواطن لعضوية مجتمع حضارى منظم .

ويبدو أن فلورنسا كانت أول موضع يظهر فيه ما يوصف بالأسلوب الكلاسيكى فى العمارة . فإن العمائر الأثرية ، والكشف عنها ، كانت دراسات جادة لفهم بنائها بالتفصيل ، على أيدى معماريين ورسامين .

وكانت روما – الغنية بآثارها القديمة – كعبة القصّاد من أهل الفن والهندسة المعمارية ، نذكر من عظمائهم برونليسكو (١٣٧٧ – ١٤٤٦) ، ودوناتلّو النحات (حوالى ١٣٨٦ – ١٤٦٦) ، ثم برامانتى من بعد برونليسكو وقد ركز اهتمامه على طريقة بناء القباب (١٤٤٤ – ١٥١٤) ، وهو الذى بدأ بناء كنيسة سان پييترو التى أتمها ميكل أنجلو وهو يستعد لإقامة قبة « دومو » فلورنسا . وكان برونلّيسكو من قبله قد ركز اهتمامه بالقباب فعكف على فحص سطح الپانتيون المقبب .

ويجىء دور أقْدرِ المعماريين أصالة ، وواحد من كبار العصر فى اتساع نشاطه ، ألا وهو باتستا ألبيرتى ، كان من أعمق الناس فى فهم نظرية العمارة الرومانية ، وقد ألف كتبه العشرة محتذيًا ابن روما القديمة المعمارى ڤتروڤيو الذى ألف كتابه الشهير للتعريف بماهية التوافق (الهارمونيا) والجمال فى العمارة وحلياتها . فقد عرف كتاب ڤتروڤبو فى دير سان جال بسويسرة ، وأدار فحصه ودراسته . إنما

الذى يميز ألبيرتى هو اعتماده على الملاحظة الدقيقة لمبانى الرومان ذاتها ، ومن أقواله : « لقد آلمنى ما شاهدته من ضياع التعاليم التى وضعها الكتاب القدماء ، ولم يبق من هؤلاء سوى ڤتروڤيو ، « ذلك المؤلف الصعب فى فهمه » . بذل ألبيرتى جهدًا جبارًا لإبراز قواعد العمارة الرومانية .

ثم هناك المؤرخون يتابعون بحوثهم عن الماضى الحى فى آثاره ، وما أصاب هذه الآثار من علامات الخراب . ودفعهم هذا إلى تقسيم التاريخ بطريقة جديدة ، متابعين بترارك القائل بأن الحد الفاصل بين التاريخ القديم والحديث ، هو انتهاء الإمبراطورية الرومانية . وجاء غيرهم يقيمون الفاصل كقطيعة بين العصور القديمة والحديثة : من جراء اقتحام القوط لروما وتخريبها فى مطالع القرن الخامس ، وامتد عصر القطيعة ألف عام . ونتيجة هذه الفكرة ظهر مصطلح « العصر الوسيط » فاصلا بين انحدار الإمبراطورية الرومانية ، وقيام العصر الحديث بفضل أهل الفن فى تجديد وسائله وحقيقته . وبذلك يمكن القول بأن القرن الخامس عشر يتسم بالجدة ، ويكون « الرينسانس » هو ثمرة هذا التحديث الذى ساعد فى تفهم العصر القديم .

نقولا ماكياڤيلِّى

الفصل السادس فى الجزء الأول من المجلدات السبعة تأليف المؤرخ البريطانى جون ادنجتون سيموندز بعنوان « الرينسانس فى إيطاليا » ، الطبعة الأولى صدرت سنة ١٨٧٥ وتلتها ثلاث طبعات ، وإحدى عشرة إعادة للطبعة الثالثة بالعدد الذى تحت يدى : ١٩٢٣ ، هو أهم ما قرأت فى كل مراجعى إيضاحًا لماكياڤيلّى فى كتابه الأشهر وعنوانه : « الأمير » ، عالج فيه السياسى النابه موضوع الحكم ، لم أشهد وأطالع شيئًا أدق وأعمق منه .

ماكياڤيلِّى ، وهو يستعرض الصفات التى يقوم عليها نجاح حاكم ، حل أشكال كتابه بالتركيز على الأمير تشيزارى بورچيا . فإن أسوأ ما يقال عن إيطاليا القرن السادس عشر يجىء فى معالجة ماكياڤيلِّى ببراعة وصراحة عجيبة لحكم هذا العاهل المجرم ، لا تنديدًا بأخلاقه وسلوكه ، وإنما تسجيلا لطريقته فى الحكم اللا أخلاق ، هى المثل الأصدق لنجاح « الأمير » . ويرى الأستاذ سيموندز ، أن هذا المشرع العميق لدواع إنسانية استند فى دراسته إلى

الاقتناع بأن الناس أشرار . وماكياڤيلّى يقول وهو يناقش الموضوع أمام الأمير : هل الآمن أن يكون الحاكم محبوبًا ، أو مخوفًا ؟ : الجواب : « الآمن أن يكون مخوفًا لا محبوبًا ، كلما توقف أمام الاختيار » . إذ يرى أن الناس فى الأغلب « لا عرفان عندهم بجميل ، ولا ثبات رأى ، وهم المخادعون ، يتحاشون الأخطار ويتعطشون للكسب . فإن كنت تخدعهم فهم معك ، يعطونك كل شيء حتى أطفالهم ، عندما لا تكون فى حاجة إلى شيء من ذلك ، إنما حين تلتمس المعونة فإنهم يخلون بك ، فالأفضل إذن ألّا تثق أو تصدق حبهم الخادع » .

وحذار أن يسيء الأمير إلى رعيته فى شرفهم ، أو ممتلكاتهم ، وهذه الأخيرة أهم من الأولى عندهم : « لأن الناس ينسون مقتل آبائهم ، بأسرع مما ينسون خسارة أموالهم ، ووضح ماكياڤيلّى هذا فى شكل بديهية : إن كانت أغلبية الناس أهل سوء ، فإن من واجب الأمير — دفاعًا عن ذاته — أن يتعلم كيف يكون رجل سوء ، ويجب أن يعمل بهذا المبدأ كلما وضحت ضرورته ، مع الاجتهاد فى كل الظروف أن يظهر طيبته » .

وفى الفصل الخاص « بكيف يحافظ الحُكّام على كلمتهم أو يوفون بوعودهم » . بدأ ماكياڤيلّى التوكيد على أن « صراع الحياة فى حدود القانون عمل إنسانى ، وأن الاتكاء على القوة عمل وحشى . إنما يلجأ إلى هذا الأخير عندما لا يصلح الأول ، أى نعم ، ويجب على الحاكم أن يجمع فى شخصيته بين الإنسان والحيوان . وكان رائد

« أتحيلّس » بطل الإلياذة ، يربى تلميذه على أن يكون حذرًا كالثعلب ، شجاعًا كالأسد . فبهذا يتجنب الشباك ، ويحتمى من الذئاب » .

والحاكم الواعى الحريص يجب « أن يتجنب المحافظة على وعده إذا كان فى الوفاء به ضر » أو عندما تفوت الفرصة التى وعد فيها . ولن يصعب عليه أبدًا أن يجد فى الوقت المناسب عذرًا بعدم الوفاء بوعده . وهو إذا تدرب على التظاهر فإن من اليسير عليه أن يخدع الناس » . ويتمثل ماكياڤيلّى هنا بالبابا إسكندر السادس « والد الأمير تشيزارى » « إن إسكندر السادس لم يعمل فى حياته إلا بالخديعة ، بل لم يتجه فكره إلى غيرها ، ومع أنه من أكثر الناس حلفانًا على أنه ربط نفسه بما وعد ، فقد كان من أندرهم تنفيذًا لوعده » فيؤكد ماكياڤيلّى : « لا ضرورة أن يكون الحاكم رءوفًا صادقًا ، أمينًا ، متدينًا ، عادلاً ، بل أُقْدم على القول بأن لو كانت فيه كل هذه الصفات ، ويعمل بمقتضاها دائمًا ، فإنّ فى ذلك مضرة به . ولكن عليه أن يظهر بهذه النُّعوت ، وخاصة فى بداية إمارته ، إذ سوف يحقق استحالة الممارسة لهذه الفضائل ، لأن المحافظة على سلطانه تتطلب أن يعمل بضد الإنسانية ، وضد الرأفة واللين » .

ولا ينصحه ماكياڤيلّى أن يكون شريرًا للشر . إنما هى الوسيلة التى تمهد له الدفاع عن مملكته ، لأنه سوف يَعْرِفُ متى يتخلى عن طريق الاستقامة . « واجبه ألّا ينطق بكلام إلّا وهو يتحدث عن هذه

الفضائل . وأن يبدو رحيمًا ، مخلصًا ، إنسانيًّا ، منصفًا ، ومتمسكًا بدينه . وخاصة هذه الفضيلة الأخيرة » .

يكفينى هذا النموذج الذى يفسر نظر الناس إلى ماكيافِلّى ، وحتى دون أن يقرءوا كتابه « الأمير » . فقد ذهبت كلمة المكيافِلّية مثلاً ، بمعنى ما جاء فيما اخترته متفقًا مع سمعة ماكيافِلّى السيئة : وهناك من يدافعون عنه بقولهم إنه رأى ذلك الشيطان تشيزارى بورجيا قد نجح فى إمارته ، وفى سياسته اللا أخلاقية . فهو مجرد تقديم مثل حى لحاكم كان نجاحه كاملا فى حكمه ، وسلوكه إجرامًا فى إجرام .

ولكى أثبت أن ماكيافِلّى ، فيما عدا ماكتبه عن « الأمير » يعتبر من أقدر وأحكم الناس فى شئون السياسة ، أقترح أن أقدم نموذجًا أو أكثر من كتبه الأخرى لكى يجىء الحكم النهائى على أكبر عالم سياسى فى عصر « الرينسانس » ، وأوفر على نفسى سرد قصة حياته ، مكتفيًا بمعالم هذه الحياة فى سطور قليلة .

ولد عام ١٤٥٩ من أسرة ذات أصل نبيل ، وكانت فلورنسا جمهورية ويحكمها بالتوالى أعضاء أسرة الميديتشى .

وأعجب ما توصف به حياة ماكيافلّى أننا لا نعرف شيئًا عن نصف حياته الأولى ، فقد عاش ثمانية وخمسين عامًا (١٤٦٩ — ١٥٢٧) ، وتصور أن حياته حتى بلغ ٢٩ عامًا مجهولة أو تكاد . والأغلب أنه عاش من طفولته إلى رجولته فى أسرته ، وهى أسرة

نبيلة وإن لم تكن واسعة الثراء ، ويبدو أن دراسة ماكيافِلّى كانت جادة : حفظ اللغة اليونانية ، وتَفَوّق فى اللاتينية ، مما أُهَّلَه للعمل بدار الحكم « السنيوريا » ، أهّلَتْه وظائفه الأولى للتمرس بشئون الحكم ، وتعمق وعيه السياسى بالإطلاع على المؤرخين الكبار من اليونانيين والرومان ليستخرج من كتبهم شيئًا غير المبادئ ، وغير الفلسفة ، فلم يك رجل نظريات .

حياته فى الوظائف التى تولاها ، ومن أوائلها فيما ذكرناه أمانة « السنيوريا » (سكرتير مجلس الحكم) . وأوفد فى سفارات كثيرة إلى الإمارات والجمهوريات والممالك ، وقد أدرك شيئًا متفقًا مع طبيعته ، أيًّا كانت طريقة الحكم ملكية أو أميرية أو جمهورية ، فالمهم الوسائل التى تجرى فيها الأحكام دون توقف أو تعثر. وأكدت التجربة لديه أهمية الظروف والتحركات والمواقف التى تجرى فيها ، فهذه هى التى تحدد مسار الأحكام ، فلاحًا أو خيبة ، ويدخل تحت هذا اختلاف الأجواء والأزمنة والشعوب . .

هذا هو التفسير الذى انتهى إليه ، اختزله من مجموعة تجارب وممارسات طويلة فى دويلات شبه الجزيرة الإيطالية . فتحقيق النجاح لا يجىء بمجرد التمسك بفكرة فى الحكم ، أو فى تنظيمه ، بل أن يستطيع الحاكم أو الأمير أن يوفق بين كل الظروف والطباع ، والأمكنة ، حتى يجىء حكمه متفقًا مع « وقائع الحال » ، بشرط ألّا ينسى ألاعيب القدر ، أو الحظ ، فإن دور هذه الظاهرة فى المجتمعات البشرية وفى الأفراد ، دور هام . ويتعين على الأمير أن

يتنبه ويمعن الفكر حتى يتمكن من معرفة الخيط الأبيض من الخيط الأسود. واستخدامى لكلمة « ألاعيب » هنا استخدام صحيح ، لأنى أشبه السياسة بالرياضة البدنية : فلاعبو الكرة مثلا ، مهما كانت مهاراتهم وحسن تصريفاتهم واستعدادهم ، فإن فى اللعبة ظروفًا تختلف وتتغير. فالأرض من طبيعة مخالفة لطبيعة أرض الفريق الزائر ، أو اليوم مطير ، وتشارك الرياح فيه اللعب بالكرة. وغير هذا من مصادفات القدر. وعلى رئيس الفريق - والمفروض فيه ألّا يكون أمْهَرَ لاعِبٍ فحسب ، بل يجب أن يكون لديه ملكة القيادة ، مع ذكاء متحرك بسرعة تمكنه من تغيير خطته ليتوافق فريقه مع تغيير الظروف.

ولهذا جاءت مؤلفات ماكيافِّلّى ، وخاصة كتابه « الأمير » قادرة على الوقوف أمام الزمان والحدثان وقفة خبرة وعلم إيجابى ، وكأنها مجموعة وصفات لكل « وعكة » أو مرض سياسى خطير.

بعد ما عرضناه من الظروف التى وضع فيها ماكيافِلّى كتابه « الأمير » يحق لنا أن نعتبر كتابه كشفًا صادقًا عن فلسفته السياسية ، فقد كان فيها مُحَلِّلاً إيجابيًّا كفئًا عرف كيف يحيط كلامه بحدود دقيقة حسب الموضوع الذى اختاره. وبالطبع لم يؤلف كتابه هادفًا الأخلاقيات بل أراد أن يضع بكل دقة علمية السلوك الذى يعتبره ضروريًّا لنجاح حاكم فى سلطة مطلقة ، وجدير بنا أن نتقبل كلامًا من أعمق ماكتب وأصفاه لعرض المبادئ التى ترشد السياسيين الإيطاليين فى القرن السادس عشر. وإذا كانت الفعال التى جرت بها

هذه السياسة توصف بالماكيافيلّية فلنعلم إذن أن الماكيافيلّية موجودة قبل ماكيافيلّى ، وأمامنا أمثلة كثيرة فى إمارة الفيكونتى بميلانو. وحكم لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وفرديناند الكاثوليكى فى أسبانيا ، ومجلس العشرة فى البندقية ، وفى «مشيخة» البابوية (الكُورِيَا) وهى مجموعة المؤسسات التى تؤلف الحكومة البابوية .

وطبيعى - بعد أن قرأ الناس كتاب « الأمير » على مدى العصور - أن « وَصْفَةَ » الماكيافيلّية تنطبق على هتلر وموسولينى وستالين ، وغيرهم من الطغاة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية (اللاتينية) لأن ما يجمع هؤلاء الحكام هو أنهم عملوا لمصلحتهم أولا ، وأكره المغالاة التى تفرض علىّ إضافة « وأحزابهم » ، كما يجمعهم أنهم يفصلون بين عملهم السياسى وبين أخلاقياته ، فكلهم لا خلاق لهم ، مادام هدفهم هو نجاح حكمهم بالعنف والغش والظلم والكذب والفساد ، ثم ينتقل منهم إلى الرعية بشراء الذمم والرشوة ، أو بالإغراء بعد التعذيب أو التهديد . والعجيب أنهم كلهم ، عندما لا يجدون فى قوانينهم المصنوعة على مقاسهم ، سبيلا لإجراء ما يتحجبون وراءه وجدوا فى مصطلح جذّاب وكاذب ، حجتهم فى العسف والإجرام ، وهو « شئون الدولة العليا » ويترجم صحيحًا وحرفيًّا بمصطلح « القوة هى الحق » (مايِيت إذرايت) .

البطل الذى أعجب به ماكيافيلّى هو « الأمير » فى عنوان الكتاب ، واسمه تشيزارى بورجيا ابن البابا الإسكندر السادس.

أوفدت « السنيوريا » (حكومة فلورنسا) سكرتيرها (ماكياڤلّى) وسفيرها إلى « إيمولا » ليراقب أميرها تشيزارى ، للإفادة عن هذه المهمة . وسعد ماكياڤلى بهذه الفرصة التى كشفت له عن براعة هذه الشخصية وحدة ذكائها ، وهى أسوأ دبلوماسى عصرها فى ذمتها الخربة . شاهد ماكياڤلّى نجاح تشيزارى فى إدارة إقليم رومانية . فهو الحزم فى أشده ، مع قسوته الفظيعة ، ولقد حضر تنفيذ الإعدام فى رؤساء مؤامرة قام بها أورسينى وعصبته .

وأدلى إليه ابن بورجيا بطموحه ، وكشف له عن دوافع سياسته المتخفية وإجراءاتها فى ظروف متعددة . وماكياڤلّى يتساءل فى نفسه : من ياترى يلعب بالآخر ، أنا أم هذا البورجيا ؟ ؛ إنما الذى عاد به من سياق الذكاء والحنكة السياسية ، كان صورة لأحسن نموذج وأكمله فى دراسة فنون الحكم . وانتهى إلى تلخيص تجربته العجيبة بقوله : إذا تأملنا فيما حقق البورجيا من منجزات فسوف نجد أنه أقام بناءً ضخمًا قويًّا لمستقبله السياسى « ومن لى به أن يعدنى بما أقدمه إلى أمير فى مطالع تقليده الإمارة » فكان هذا ما قدم به كتابه المشهور إلى أمير فلورنسا الشاب المديتشى .

تشيزارى لم يكن لديه ما يستفيد منه سوى أنه ابن بابا روما . فكان الأيسر له أن يجرب نفسه فى سلك الإكليروس . فعينه أبوه كاردينالا . ولكن بعد أن قُتِل أخوه الأكبر ، خلع الرداء الأحمر ، وأعلن استعداده لتقلد عمل سياسى . ومع أن أباه أصدر مراسيم بتعيين عشرة كرادلة فى يوم واحد ، فإنه طلب من المجلس المختص

(الكوريا) بأن يوافق على إقامة ابنه تشيزارى أميرًا على دوقية رومانية . ولكن ممثلى البندقية وميلانو « فى « الكوريا » رفضا الموافقة ، بالإضافة إلى حاجة البابا الماسة إلى سناد من أكثر الأسرات العريقة فى روما : أسرتى أورسينى وكولونا ، علمًا بأن الأسرتين تتحكمان كقُوّادٍ لكافة الجنود المرتزقة فى إيطاليا ، وهذا بالإضافة إلى كونهما نبلاء روما ، ولا يطيقون الاستسلام للبابا الفلورنسى وهو أسبانى الأصل . ولم يجد طريقة يكسب بها موافقة النبيلين إلّا بدعوة ملك فرنسا إلى إيطاليا ، وهو مدرك أن هذا الملك بحاجة إلى سلطة البابا للموافقة على طلاق الملكة زوجته مقابل حمايته لابنه شيزارى ، وانتهى الأمر إلى تعيين ابن البابا دوقًا على رومانية بمعونة ملك فرنسا وأسرة أورسينى .

واصل تشيزارى ببراعته ومؤامراته ومن بينها الاحتيال على حيازة ثقة الكاردينال الفرنسى ، وهو المسيطر على ملك فرنسا الشاب ، وبهذا تغلب على كبار أسرتى أورسينى وكولونا ، ووضعهم فى ركن بالحيلة والخداع ، فحين دعاهم إلى قصر سيجاليا ، وعزلهم عن حراسهم وأجنادهم ، أمر بإعدامهم خنقًا ، وبهذا تم له الاستيلاء على حكم مقاطعات فى وسط إيطاليا ، ثم جمع إلى إمارته البَدَنِيّة السيطرة الروحية بحكم أن أباه عينه كاردينالا ، كما أسلف القول ، وتحقق له أمران : خوف كبار الإيطاليين منه ، وتعلّق الشعب به ، ولن يقف تشيزارى عند هذا النجاح ، إذ كان يأمل فى امتداد سلطاته على الإمارات الإيطالية الباقية ، لولا أن حال بينه وبين

النجاح ملك فرنسا ، ولكن تشيزارى بورجيا عرف طريقه إلى اجتياز العقبات . وساعد على نجاحه وجود الإمارات الوسطى التى يحكمها بين ميلانو فى الشمال ونابولى فى الجنوب .

وآخر المؤامرات التى فكر فيها كان يتعلق بالمستقبل ، إذا توفى أبوه . ولهذا حرص على اللعب بالإكليروس حتى لا ينتخب بابا جديدًا إلا والحيطة منه معدة ، وآخر ما ارتكب من جرائم ، القضاء على كل أولياء العهد فى الإمارات التى يحكمها ، وضمن بهذا اختفاء من يمكن أن يتحزبوا عليه بحكم ولايتهم للعهد .

وقصارى القول يجىء فيما كتبه ماكيافيلّى تعليقًا على هذه الجهود والألاعيب « فالذى يشعر بالحاجة إلى حصانته وسط أعدائه ، والذى يتمكن من ضم أحلاف له بمختلف الوسائل بالمال ، والوظائف ، وبالقوة والغش ، لن يجد نموذجًا أقوى ازدهارًا من تشيزارى بورجيا » .

فقرات مختارة من كتابات ماكياڤلِّى

معاملة المحكومين إما حيوانية أو إنسانية :

يجب العلم بأن هنالك طريقتين للحكم : إحداهما بالقانون ، والثانية بالقوة المطلقة ، الأولى جديرة بالإنسان . والثانية اختص بها الحيوان . غير أن الطريقة الأولى وحدها فى الأغلب ، لا تكفى فيضطر الحاكم إلى استخدام الثانية – ولهذا يتعين أن يكون قديرًا على ممارسة الحيوانية ، والإنسانية . وهذه قاعدة رُبِّىَ عليها الحكّامُ القدماء . بلغة مستورة ، ونعنى أن يستخدم الأمير الطريقتين ، لأن كلًّا منهما لا تقوم وحدها بل تحتاج إلى الأخرى .

وعلى الحاكم أن يحسن اختيار الحيوان المناسب لكل طريقة ، الأسد والثعلب ، فالأسد ليس عليمًا بالشِّباك حتى يتجنبها ، والثعلب قادر بحيله على تجنب الذئاب ، فالحاكم عليه أن يكون ابن آوى ويتجنب الوقوع فى الشراك ، وأن يكون أسدًا تهابه الذئاب – أما أولئك الذين يطمحون فى أن يكونوا أُسودًا فقط فإنهم لا يفقهون شيئًا . ولو كان الناس جميعًا طيبين لما كنا بحاجة إلى هذا .وذاك ،

ولكن أغلبيتهم أشرارٌ يفرضون على الحاكم أن يكون ابن آوى ، إنما يتعين عليه أن يتسلم ويتدرب على إخفاء طبيعته هذه ، وأن يعتاد على الخداع والمراوغة مُتبسِّطًا والناس مطيعون للضرورات ، فلن يتعب الحاكم فى العثور على من يؤمنون بالمخادعة .

فن الحكم فى المظهرية :

عندى مثال حى أتمسك بالحديث عنه ، وهو أن البابا إسكندر السادس والد الأمير موضوع كتابى ، لم يصنع شيئًا سوى خداع الناس ومخاتلتهم . لم يفكر بغير هذا – مادام لم يجد دائمًا من يقعون فى الفخ . ولم يوجد رجل مثله فى القدرة على نوال الثقة بأقواله ، وسنادها بأغلظ الإيمان . وهو أقل الناس وفاءً بوعده وارتباطًا بيمينه وكان دائم النجاح بهذا السلوك ، وإتقانه ، ولا ضرورة ثمة للأمير أن يحظى بالصفات المفيدة ، فالأهم أن يظهر بأنه يملكها . وعلى الرغم مِنّى أجرأ على القول بأنه حتى ولو كان حقًّا يملكها ، ويعمل بها ، فإنها تعود عليه بالخسران . الظهور والتظاهر بها أهم من حقيقة وجودها . ويجب الفهم بأن الأمير – وخاصة فى بداية حكمه – مطلوب منه أن يمارس كل الشرائط التى تضفى عليه صِفَةَ (الطيبة) ، لأنه مضطر فى حكمه – إذا أراد المحافظه عليه – أن ينفذ ما يخالف وعوده ، وأن يعمل على الضد من الرأفة والإنسانية . المهم أن يتجه مع الريح ، مهما تغير اتجاهه ، مع الحرص على ألا يبتعد كثيرًا عن كرم الأخلاق بقدر الإمكان ، وبشرط أن يكون دائمًا على

استعداد لولوج باب الشر عند الضرورة ، والناس عموما يقيمون حكمهم على الأمير بالنظر ، لا باللمس ، كل العالم يرى الظاهر بوضوح ، القليل منهم تصل حساسيتهم إلى إدراكه لما يخفيه هذا الظاهر.

الأخطاء المطلوب تجنبها :

الحذر من الوقوع فيما يعرضه للحقد والاحتقار . وأكبر ما يثير البغضاء والكره هو اغتصاب الأملاك ، والاعتداء على نساء شعبه . فالغالب أن يعيش الناس قانعين هانئين إذا لم يعتدِ أحد على ملذاتهم أو على شرفهم . ولهذا يتبقى للأمير أن يعصف بالطامعين والطموحين ، وهم نوع من الناس يسهل التخلص منهم (أى تصفيتهم) .

ومن واجب الأمير أن يتجنب حكم الناس عليه بالطيش والخفة والتخنث ونقص الشجاعة ، وضعف الإرادة .

وأن يجتهد فى أعماله وإنجازاته بالظهور عظيمًا شهمًا ، جادًّا ، قويًّا ، وأن يظهر لهم ، فيما يختص بالمتآمرين أن لا نقض للأحكام التى تنزل بهم . وأن يسعى فيما يتحدثون به عنه ، أن يكونوا واثقين من أن لا يعلم إنسان بإمكان خداعه أو تجريحه .

العشرية الأولى للمؤرخ تيتوس – ليڤيوس :

لم أخرج فى مختاراتى من كتابات ماكيافيلّى عن الحيز اللا أخلاقى الذى اشتهر به الكاتب السياسى الأكبر فى عصر الرينسانس ، وكتابه عن « الأمير » هو مصدر هذه الشهرة . وأظنه أمرًا واضحًا أن صفة الماكياڤيلّية فى السياسة هى من نتائج هذا الكتاب . وقد علقنا عليه بما فيه الكفاية .

وحان الوقت لأصحح كل هذا الحديث عن أهم دراساته السياسية والاجتماعية ، وهو الكاتب الذى وضعه النقاد فى طليعة الفلاسفة والسياسيين . لا فى عصره وزمانه ، بل فى كل عصر وزمان . وفات الكثيرين ممن كتبوا عن « الرينسانس » وعن ماكياڤيلى أن يكشفوا عن أهمية ما يعرف ضمن مؤلفاته باسم « أحاديث من العشرية الأولى للمؤرخ « تيتوس – ليڤيوس » (وهو : تِيتْ – ليڤ فى لغة الفرنسيس – وتت – لِڤِّى عند الإنجليز) . إنها أحاديث أوسعت آفاق ماكياڤيلى إلى درجة تفوق الوصف . وصدق من حكم على أن هذا أعظم مؤلَّف له . وتنشأ أهميته من أنه كشف لنا عن عمق تفكيره . وفى ذلك يقول أهم المعلقين الفرنسيين « چانجنيه » : « هذه أحاديث أسمى من كل كلام عن طغاة صغار فى إيطاليا الرينسانس ، أخرجهم من حسابه ، ليضع نفسه فى الوضع الصحيح كرجل ذى مبادئ سامية . وهو يحدثنا فى لغة حرص المعنون بمادة الكتابة أن يشغلوا تحليلها لغة وأسلوبًا . كما حرص المؤرخون أن يستخرجوا منها

خدماته كمؤرخ ، فى حين استمتع القراء بما أفاضه عليهم من تفاصيل الأحداث . وتخلّف القراء عن إدراك ما فيها من دروس سياسية ، تسمو على سرد وقائع جاءت فى نص تيتوس ليڤيوس ، فالمُهِمّ أنه اتخذ من نصوص العشرية الأولى (الديكاد) للمؤرخ الرومانى الكبير خلفية للتعليق عليها فى اثنين وأربعين ومائة فصل . واشتملت على مواضيع سياسية . وإدارية واجتماعية ، وعن إيضاحات فى الفن العسكرى . يؤكد كلامه بضرب أمثلة ، لا من عشريات تيتوس – ليڤيوس وحدها . بل هو يحدثنا عن وقائع وملابسات استخرجها من التاريخ الرومانى كله ، ومن التاريخ العام ، مستعينًا بشهادة زينوفون ، وتاسيتوس – إلخ ، وبتاريخ فلورنسا ، وسيرة البابوات ، وما جاء فى حوليات الإمبراطورية ، وفرنسا وأسبانيا .

ولقد تصفحت غير قليل مماكتبه ماكيافيلى فى ١٤٢ عشرية ، باحثًا عن واحدة مبسطة أقدمها للقارئ . فالأحاديث (ديسكورسو) كان يدلى بها بين خَوَاصّ وأصدقاء فى حدائق أوريتشلارى ، وكأنهم يتخيلون حدائق « أكاديم » فى أثينا ، بهذا الفارق : مداولات المفكرين فى شباب الأمم ، كانوا يعنون بالآلهة وبالروح ، وبالطبيعة ، وبأسرار الأبد . أما فى عصر النهضة والنضوج فقد كانوا يتجنبون الدراسات التجريدية فى جو حالم ، ويتابعون ما يرسم لهم طريق السؤدد ، فأقبلوا على وعى التاريخ والسياسة ، فهو السبيل الذى يضم الماضى إلى الحاضر ، فتحًا للمستقبل .

الكتاب الثالث – الفصل الثالث والعشرون
طرد كاميلّوس من روما

عندما تحدث المؤرخ تيتوس – ليڤيوس عن رجل الدولة والقائد كاميلّوس (ماركوس فوريوس) ، أشار إلى أن جنوده أعجبوا ببسالته وحقدوا عليه فى الوقت ذاته .

والصفات التى اجتذبت إعجابهم كانت عنايته بجنوده ، وحرصه عليهم ، وسمو روحه . وجودة الإعداد والتنفيذ فى قيادة الجيش . أما الحقد فكان مصدره المغالاة فى العقوبة ، ومسك اليد فى المكافأة .

والمؤرخ تيتوس – ليڤيوس يرجع هذا الحقد إلى الدوافع الآتية :

أولا : فضل أن يضم ما جمعه من بيع ممتلكات الأعداء إلى احتياجات الدولة ، على أن يتقاسم وجنوده بقية غنائم النصر .

ثانيًا : فى الاحتفال بالنصر أسرج أربعة جياد بيضاء فى عربته ، مما آثار بين الجنود القول بأن كبرياءه الأرستوقراطى دفعه إلى التشبه بالشمس الطالعة .

ثالثًا : سحب غنائم الانتصار من الجنود ليقدمها لمعبد أبولّون . وكانت لا تزيد على عُشْر غنائم الظافر .

ويمكن الحكم على هذا السلوك بأنه أثار بغضاء الشعب ، إذ حرم الجنود من حقهم . وهذا فعل فاضح . لأن ما حبسه عنهم من خير تظل ذكراه حية فى نفوس المحرومين ، ولأن احتياجهم مهما يكن ضئيلا يكفِ للبقاء فى ذاكرتهم ويثار كل يوم .

إن الزهو والكبرياء نبع مرٌّ لحقد الشعب . وخاصة بين رجال أحرار . وحتى إذا لم يسبب هذا السلوك ضُرًّا لهم ، فإنه يظل مثار كره لصاحبه . وواجب القائد والزعيم تجنب هذه العثرة . فالوقوع فى شرك الحقد العام ، دون أن يجنى القائد منه فائدة هو عين الجسارة والطيش .

الكتاب الثالث – الفصل الرابع والعشرون

امتداد القيادات سلمت روما للعبودية :

إذا تأملنا فيما جرى على الجمهورية الرومانية ، فسوف نلاحظ أن سبب حلها مرجعه عاملان : الأول : الخلاف الذى نَشِبَ حول قانون الإصلاح الزراعى . والثانى هو مد الخدمة للقيادات . فلو أن المسئولين تنبهوا لكان من المستطاع إيجاد العلاج الناجع ، مما يطيل عمر الحرية ، ويقيم جوًّا من الهدوء .

ومع أن مدّ الخدمة للقيادات لم ينشأ عنه فى روما أى متاعب ظاهرة فإنّ النظرة الفاحصة تكشف عن الضرر الذى يلحق بالجمهورية من جراء النفوذ الذى اكتسبوه من امتداد سلطاتهم .

فلو كان امتداد السلطة جرى فى حدود معقولة وبين رجال فضلاء ، كما فى حالة القائد لوسيوس كوينتيوس ، لما تعرضت الجمهورية لما حل بها . فالفضيلة التى اتسم بها لوسيوس قدمت أمثولة ملحوظة . فعندما وافق الشعب على اتفاقية بينه وبين أعضاء

« السناتو » على مد خدمتهم عامًا ، كان الشعب يتوقع أنهم قادرون على مقاومة مطامع النبلاء ، وبما أن مجلس الشيوخ شاء أن يجارى الشعب فى مد أجل قنصلية لوسيوس كوينتيوس . فإن القنصل رفض هذا الإجراء ، قائلابأن من الواجب القضاء على الأمثولات السيئة ، بدل المغالاة فى ارتكاب الخطأ وتكراره . وأصرّ القنصل على انتخاب أعضاء جدد .

فإذا كان لمواطنى روما رجاحة عقل لوسيوس ، وقوة شخصيته لما وصل الأمر إلى ارتكاب هذا الشطط ، بمد خدمات المشرفين بما يستتبع حتمًا امتداد مدة القيادة العسكرية ، وهذا هو الإجراء الذى انتهى بالقضاء على الجمهورية .

وأول إجراء لهذا المد تم فى قيادة بوبليوس فيلوس . وكان قائمًا بحصار مدينة هامة ، وقنصليته قاربت النهاية . ومجلس السناتو يَخْشَى من إفلات انتصاره ، وخاصة أنه لم يبعث إلى المجلس بطلب ، بإيفاد عضو من السناتو ليأخذ مكانه . وإذا بالمجلس يرقى بوبليوس إلى قنصل أول ، وكان أول شيخ يبلغ هذا المقام . فهذا الإجراء ، وإن كان فى الحق أملاه على الشيوخ باعتباره فى صالح الجمهورية ، فإنه بمضى الزمن انتهى إلى استعباد روما . فقد استمر الحال على هذا المنوال . وما دامت الجيوش فى مواقع حروبها تبعد عن روما ، فقد امتد الزمن فى هذا الخطأ ونشأ عنه نوعان من المتاعب : الأول – قِلَّة عدد الموظفين الذين أُعْطُوا الفرصة ليمارسوا القيادة . والثانى – امتداد خدمة القائد أمدًا طويلا ، وعلى أبعاد شاسعة من العاصمة ، قدم

للقائد الفرصة بتوثيق العلاقة بينه وبين جنوده . فانتهوا إلى إهمال أمر مجلس الشيوخ ، ولم يعودوا إلى الاعتراف إلّا بقائدهم .

وكان هذا الأصل فى نجاح القائدين سيلّا ، وماريوس فى قيادة جيش لا يتردد فى اتباعهما ليقضيا على الجمهورية . وتبعًا لكل هذه الإجراءات تمكن يوليوس قيصر من استعباد وطنه .

البابا إسكندر السادس

أنتخب (روديريجو بورچيا) بابا عام ١٤٩٢ ، واختار اسم اسكندر السادس ، وانطلقت الأفراح فى روما ، ونشرت من النوافذ وفوق الأعلام صورة الثور طغراء » أسرة بورچيا . وهتف الجماهير بما يذكرنا بأسلافنا فى مصر القديمة حين كانوا يعثرون على العجل أبيس بصفاته ولون جبهته وهتفت الجماهير « إيحيابورچيا ، يحيا الكسندر » .

كان أهل روما لا يعرفون شيئًا عن البابا الجديد ، ولو عرفوا المصائب التى تنتظرهم من هذا البابا الذى يستحق اللعنات على مدى الزمان لاتخذوا الحيطة منه . ولكنهم لم يعرفوا عنه إلا أنه رجل ممتاز بكياسته وطلعته ، ولطف وسامته ، وعظمة محضره . وهو إلى كل هذا خطيب رائع ، وإنسان حبوب ، لامع فى حشود الاحتفالات دينية أو مدنية ، وصفه رجل هيومانى وقد رآه فى موكبه المتجه إلى قصر اللاتران ، ممتطيًا جوادًا أبيض ، فأهلّ على الناس بجبهته العريضة وجلال محياه ، يبارك الجماهير يمنة ويسرة . تحوطه الجلالة مع حلو الملفظ ، معسول اللسان ، جذاب للنساء بطلعته .

ولقد أثبت وهو كاردينال أنه رجل قدير ، لم يبد عليه أو منه علامة قسوة ، أو خداع : فإذا كان زير نساء فأمر ذلك شائع بين بابوات ذلك العصر ، أخلف عددا من البنين والبنات ، وكل هذه الصفات الظاهرة فيها روح العصر العجيب ، ضرى عليها الشعب ، لأن رأس الكنيسة الكاثوليكية ، عاهل دنيوى تعنو له رءوس الملوك والأباطرة . قليل من الكبراء عرف بعض دخائله . قال ملك نابولى لقرينته ، وهو يكتم أساه : لقد جاءنا بابا مفسدة أى مفسدة ! سوف يعم ضرره على مجموع الكاثوليكية ، هذا إلى أنه أسبانى « مارانى » (بمعنى أنه من أصل مغربى متنصر) ولعل ما طَفَا على وجه ذنوبه أنه عين منذ انتخابه ثمانية عشر كاردينالا ، كُلُّهم أسبان ، وبينهم خمسة من أسرته .

وبغير دخول فى تفاصيل انتخابه ، تكفى الإشارة إلى أن « المجمع المقدس » . وهو مجموع الكاردينالات بمثابة أمراء الكنيسة ، صرفوا كلهم ، فيما عدا روديريجو بورجيا ، من حر أموالهم فى انتخابات البابا السابق على الكسندر ، ثمنًا لغطاء الرأس الكردينالى ، « حلوانًا » للبابا المتوفى ، فى مقابل نوالهم رتبة الإمارة الإكليروسية ، أى الكاردنالية . وفرصتهم فى استرداد ما صرفوه تهيأت فى انتخاب البابا الجديد ، وقد تم لهم ذلك ، فالمرشح مضمون ماليًّا أن يجرى عليهم عطاء ، وكل منهم طامع فى وظيفة تجرى عليهم المال جزافًا . وروودريجوبورجيا ، إسكندر السادس أكثر المرشحين ثراءً ، وأقواهم شخصية ، وأذكاهم ، وأكبر رجل دنيا بينهم . وكان بورجيا عليمًا

بأطماعهم ، فاستعد لها بحساب دقيق : أحدهم يطمع فى أن يعين مستشارًا مقربًا ، والثانى سدد بصره وبصيرته إلى الانتفاع بقصور البورجيا فى روما – فالبابا يعيش فى القصر الرسمى حتى وفاته . والثالث أن يتولى ديرًا كبيرًا بأبراجه العالية ، والكاردينال الرابع يطمع فى أن يعيش رئيسًا لأساقفة بورتو ، حتى يسكن قصرها المنتفع بأعلى الأبنية . أما الأقل أهمية فى أعضاء المجمع . فقد أوفد إليهم صاحبًا ليتولى أمر أربعة بغال مثقلة بالذهب الرنان يوزعه عليهم حسب اجتهادهم فى الانتخاب .

وتخلف خمس كاردينالات عن المشاركة فى الانتخاب ، وعلى رأسهم عدو لدود لبورچيا .

إن سمعة الكسندر السادس – بعد أن عرفت رذائله وجرائمه – أثارت الكُره ، وأضيف إليه التخوف من ابنه العاتى تشيزارى بورچيا ، وكان أسوأ من أبيه . ويمكن تصور الإجماع على لعن الأب بعد وفاته .

ومع كل هذا ، قال المؤرخ الفلورنسى الكبير جيتشارديني : « مات البابا الكسندر وهو فى أعلى مراقى المجد والثراء . ويقتضى الحق أن نقول بأنه كان رجلا كبير العقل ، صادق الحكم والتقدير » .

ويقتضينى الحق أن أتم كلام المؤرخ الشهير : « ولكن هذه الصفات الطيبة ، فاقتها سوآته ، فحياته الخاصة كانت فى حضيض الفحش والفجور ، بلا خجل ولا إحساس بالحقائق ، ولانفاذ عنده

لوعود وعد بها ، ولا اعتبار عند رأس الكنيسة الكاثوليكية بمعنى الدين ، طماع مفتوح الشهية لكل اغتصاب على قسوة ووحشية بدائية . كتب سفير البندقية : «كل ليلة كان يعثر فى روما على أربعة إلى خمسة قتلى من الإكليروس وغيرهم» . وبينما كان البابوات يخطبون الناس لحرب صليبية ضد العثمانيين ، كان إسكندر السادس يَحُضّ السلطان بايزيد على غزو أوربا ليخلصه من الأمراء الذين يقاومون مؤامراته فى صالح أولاده . والشعور الأخوى القائم بين البابا والسلطان العثمانى . كان يتعلق بالاتجار بالأمير العثمانى «چِمْ» وهو أخٌ لبايزيد ، وابن لمحمد الفاتح ، مما دفع الشاب المسكين على الهَرب إلى بلاد النصارى ، فاعتقله إسكندر مقابل أربعين ألف دوقية يدفعها الباب العالى مقابل هذا الاعتقال ، وهذا غير ماكان يغدق به السلطان على البابا إنّوشنتى من هدايا ، مثل الحربة التى قتل بها الرومان الملكة الزباء (زنوبيا) . فأخذها إنّوشنتى وأقام حولها مقصورة تعنى التقديس ، بل أمر أن يقوم رمسه على مقربة من ذلك الأثر . وبقى الأمير «چِمْ» فى روما ، وكان يعيش حياته الإسلامية داخل الڤاتيكان ، وله بلاطه الخاص .

وهناك رسائل بالمحفوظات يتبادل فيها السلطان بايزيد والبابا إسكندر السادس توكيد الصداقة الحميمة بينهما . وفيها كان عظمة السلطان يرجو صديقه البابا أن ينهى حياة الأمير البائس ، ويعده بدفع ثلاثمائة ألف دوقية فى مقابل هذا الخلاص ، ويضيف إليها الرداء الذى كان على السيد المسيح ، وكان الحرس الرومانى يلعب

أفراده بالنرد ليكون الرداء من حق الكاسب . ووصلت الأموال والرداء إلى أعداء البابا . وكان البابا قد عقد حول الأمير العثمانى صفقة بتسليمه إلى ملك فرنسا « شارل السابع » فى معسكر جيشه بين روما ونابولى .

كان البابا الكسندر السادس أسير عشيقتين : ڤانوتزا ، وهى عقيلة زوج أول ، ثم ثان . و « لابلاّ » وكانت زوجة أوسيوأورسينى . وأمر هذه السيطرة النسائية كان معروفًا . وقد قبلت العشيقتان أن تعيشا حياة أشبه بالحريم السلطانى ؟ ! وكانت معهما وصيفة شرف : هى السيدة أوريانا دى ميلا .

فهم هذا الوضع العجيب لرأس الكثلكة يقوم على أساس أن نظرته ونظرة الشعب إليه تتغلب فيها الملوكية العلمانية على البابوية الروحية . وهذا يعطى صورة من سوءات المجتمع الإيطالى ، وخاصة فى القرن السادس عشر . وقد أقام ابنه الأكبر الحرام — من العشيقة ڤانوتزا دوقا لجانديا ، وابنها الأصغر زوجه بالأميرة ابنة ملك أراجون (الأسبانى مثله) هذا وكان البابا إنوّشنتى — خلف أسوار الفاتيكان — يتصيد من وقت لآخر المجرمين القادرين على تقديم « المعلوم » . وكان ابنه يتأهب لِلَهْف المال من خزائن الكنيسة ، فى حالة وفاة أبيه . وقد أشيع ذات مرة موت إنوّتشنتى ، فحاول ابنه تنفيذ غرضه ، ولكنّ المحيطين بالبابا لم يُمكِّنوه . فحاول خطف الأمير العثمانى « چم » ، فهو رأس مال طيب ، إذا بيع لواحد من الأمراء القادرين على الدفع . وجاء بعد إنوّتشنتى ، البابا إسكندر (١٤٩٢ — ١٥٠٣)

فعنى فى أول اهتمامه بصون الأمن . ودفع مرتبات المستخدمين كاملة . وما كان أكثر قصص البورچيا مَحْلِيًّا بتحقيق أول هدف له ، ولابنه تشيزارى بورجيا ، هو إخضاع كل الحكومات لتابعة للكنيسة ، أى لسلطان البابا ، وكان يحكمها أمراء صغار ، وكلهم تابعون كإقطاع للبابوية . ثم تخلص البابا من زمرة أسرتى أورسينى وكولونّا . ولم تتوقف فصول هذا الخلاص إلا بموت البابا مسمومًا . ولم يكن إسكندر يهتم بالرأى الخارجى ، فى غرب أوربا ، كل ما يهمه هو إثارة الرهبة والفزع حوله ، حتى يفرض أمره على سكان المناطق القريبة وكان قديرًا على كسب بعض الأمراء الأجانب ، حتى إنّ الملك الفرنسى لويس الثانى عشر كان يساند إسكندر بورچيا بشدة . أما سكان فلورنسا فلم يكونوا على علم بماجريات الأمور وسط إيطاليا . إنما فى ظرف صعب واحد كان متوقعًا بسبب حملة الملك شارل الثامن على إيطاليا ، مارا بروما ، فلم يحدث شىء مما سمع بأنه سوف يطالب بعقد اجتماع كنسى لكى يقرر شيئًا يختص بإمكان تغيير البابا ، ونقله إلى فرنسا .

ويبدو لى أن الناحية الإدارية ، وقوة العزيمة ، مع الجاذبية العجيبة فى شخصية إسكندر السادس ، إنْ كانت لا تعفيه من انسياق إلى شهواته ، ومن جرائمه وحرصه على جمع المال بكل الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، فهى تؤكد أنه كان من أقدر الناس على الإدارة والشئون الاقتصادية نتيجة خبرات شبابه فى الوظائف التى تقلدها .

كان مركز الضعف فى هذه الشخصية العجيبة هو حبه لابنه تشيزارى بورجيا ، وهذا الابن الملعون استولى على أبيه ، وأفقده إرادته . وبذلك كانت أعمال الكرسى الرسولى مرسومة بهذه الانحيازية .

الحديث عن مصائب عصر إسكندر السادس طويل ، ولا أذكره إلا إضافة إلى شخصية ابنه المجرم الزنديق ، وحتى اهتمامى بهذه الناحية السلبية فى عصر الرينسانس مَرْجِعُهُ عندى هو الكاتب والمؤلف والسياسى والدبلوماسى الأكبر فى عصره ، ماكيافيلِّى . فقد طالعت أكثر من دفاع عن كتابه « الأمير » فلم أقتنع . نعم كان تشيزارى أميرًا ناجحًا ، بسبب ذكائه ، وحسن استعداده لما يؤديه . ولكن أن يدافع عنه إنسان طيب ، ورجل خبير ، وذو قلم أنيق ، بحجة أن تشيزارى أمثولة فى إتقان مهنة الأمير الحاكم ، لا علاقة لها بهذا الإنسان المخيف الذى جعل مكان اسم بورجيا فى قائمة شياطين البشر . ولم أُدْخِلَ فى الموضوع شقيقته لوكريسيا ، ، فقد كانت امرأة ساحرة ، جميلة ، تزوجت أكثر من مرة . وفرض عليها الطلاق أبوها البابا ، لأنه جعل منها تجارة نفوذ ، فطلقها من زوج طيب ، عندما وجد فرصة لابنته الحسناء ، المغرمة بمجتمعات الأدباء والشعراء والموسيقيين ، لكى تصبح بعدها أميرة « فيرارا » . ويبدو أن شخصيتها التى استخدمت فى المسرح والأدب القصصى إبّان العصر الرومانتيكى صورة بشعة ، مشكوك فى صدقها .

ولننتقل الآن إلى صورة أقرب إلى مكارم الأخلاق ، والحرص

على الإصلاح الدينى ، على يد سافونارولا ، فإن هذا الراهب العجيب ، وسأصفه دائما بالرهيب ، كان الثائر الأكبر على فساد رجال الدين من أعلى مراتبهم إلى أضألها ، ولكن الطبيعة لم تهبه القدرة على ثورة انتهت بإعدامه شنقًا ، وإحراق جثته علنًا فى الميدان الكبير بمدينة فلورنسا . وفى رأيى أن مثل هذه الشخصية لا تظهر إلا فى عصور التحولات الكبرى فى المجتمع ، سواء فى الممارسة الدينية ، أو فى النظم السياسية .

ساڤونارولا
(رمز العصر الوسيط)

سأحدثك عن عجيبة عصر الرينسانس : چيرولامو ساڤونارولا . ولد فى فبراير ١٤٥٢ ، ثم رفض أن يتعلم مهنة أبيه الطبيب . وهو لا يأنس إلى عصره فى بهجته وتحرره من رباط العصر الوسيط .

كان أبوه طبيب البلاط فى إمارة إستيه ومن أصل نبيل . نشأ ابنه كارهًا لهذا البلاط ، أفراحه ومواكبه وافتتاحه للعصر الجديد بحفلاته ، البلاط المؤتنس بالشعراء ، والملاعبين ، والمضحكين ذوى الشهرة الواسعة فى زمانهم ، والفرسان والأتباع ، والعلماء وملكات الجمال . قصر إمارة « إستيه » مقام فى أساساته سجون بزنزانات يقضى فيها المحكوم عليهم بالمؤبد أن يعيشوا رهن السلاسل . . . حتى الممات .

چيرولامو يأنس إلى فلسفة أرسطو ، ويعيش مؤلفات توماسى الإكوينى ، كارهًا « الهيومانية » الجديدة بكل معانيها . لا يرتاح إلا إلى التربية الدينية على أيدى إسكولائيين من أصائل العصر الوسيط . فإذا قرض الشعر فى العشرين من عمره ، كان ينعى فيه على زمانه ، الخراب والتخريب ، الفوضى التى تشمل الدنيا ، تاهت فيها

الفضائل أو ماتت « إذا رفعت البصر إلى خارج الدار لا أرى سوى الظلام يلتهم العتامة ، والناس فى نشوة العقار لا يخجلون من موبقاتهم » كره البابوية ، وطغيان الاستبداد . فلم ير غير الدير يهرب إليه من العالم الخارجى ، ملتمسًا الراحة من العذاب الذى يشتمل الخاطئين ، يتخفى فى إسكيم الرهبنة ، وقد انتهى به الأمر إلى هجر والديه ، ودخول دير الدمنيكان الذى يحمل اسم « سان ماركو » أسوة بأستاذه الروحى توماسى الإكوينى ، كتب إلى أبيه معتذرًا يقول بأنه تارك دنيا تُهان فيها الفضائل ، وتحترم الرذائل ، لم يستقر ولا عرف الهدوء إلا بفلورنسا ، منفعلا بجمال مبانيها الدينية ، وكان إحساسه بأنها الحاضرة التى سوف يجول فيها ويصول ، يخطب فى أهلها ، بعد استقراره فى دير سان ماركو ، مستسلمًا للهدوء أسير مكتبة الدير ، والفريسكات التى زين بها الدير راهب اسمه فرا انجيليكو . ثم خرج إلى دور العبادة يخطب فى الناس بأسلوب تنقصه الخبرة ، ويدفعه إلى ارتجال الخطب لإيقاظ ضمير الشعب التائه فى حياة كلها عسف وجور . ونمت تجربته الخطابية باندفاعه العاطفى . فتوقدت خطبه شعلة لا تنطفئ باسترساله ، إذ تتدافع لعناته ، وتصويره للحالة التى عليها هؤلاء الناس ، وقد نزلوا إلى حضيض المهانة والذل . قال من كان يسجل خطبه :

« وهنا غلبنى البكاء ، والناس فى نواح ، فتوقفت عن الكتابة وسط جمهور لا يكفكف دموعه » .

قال الهيومانى الكبير پيكرديلا ميراندولا ، علاّمة الجيل : « كان

مجرد صوت ساڤونارولا يملأ أرجاء الكنيسة الحاشدة ، وكأنه ضربات القدر تثير فى السامعين قشعريرة تنفذ إلى نخاع العظام ، وتَشِدّ شعر الرءوس . فإذا خرج الجمهور إلى الطريق العام ، كان سيرهم لانبس فيه . وكأنهم أشباح ذاتهم . وترديد الخطيب لكلمة « الندم » كأنه صوت الرب فى عُلاه ، أى نعم ! « الندم ، فإن سيفًا مصلتًا فوق رءوسكم ، هو الممثل لذنوب الكنسية ، وأهلها الذين زحموا الدنيا بالزِّنى ، وارتكاب بقية المعاصى ، والحكام الظلمة مجرمون يجيدون العسف ، والدوس على الأرواح ، أرواحكم أنتم أيها الآباء والأمهات والفتية والفتيات » ، والأطفال يلثغون بهجر القول ، وكأن الخطيب أمام مرآة تعكس خطاياهم ، وتكشف عن أحوالهم النفسية ، تحيط بها ألسنة اللَّهَب ، والراهب يكشف لهم عن مستقبل الأمة خرابا ، وعن بأسائهم القادمة . وستقتحم الأجناد الأجنبية بلادهم .

ما أشبه هذه التنبؤات بمراثى « أرميا » وتهديدات « حزقيال » ، أو يوحنا المعمدان ، يصرخ بين الأجيال المثقلة بالخطيئة : « التوبة والندم ! فقد حضرتكم مملكة السماء » . أشار چيرولامو ساڤونارولا فى مذكرة عن خطبة ألقاها فى خلال العام ، أكدت على ثلاث نقاط : « يجب أن تتجدد الكنيسة فى زماننا . وسيسبق هذا الإصلاح مصائب تنزل بإيطاليا ، معادلة للعقوبات ، وإن كل هذا سيحدث عن قريب » .

والعجيب أن الراهب فى كلامه كان صادقّ الإحساس بما سيحل

بلاده ، فلا تعجب أن يوصف ساڤونارولا بنبي عصر الرينسانس . ولكنه كان فى الحقيقة ملاك الهدم لا البناء ، فلا هو سان دومنك ، مؤسس رهبنة الدومنكان ، ولا هو سان فرانسوا الأسيزى مؤسس الفرنسيسكان ، ولا هو إنياس دى لوايولا منشىء الجزويت . إنما هو تلميذ « العهد القديم » (من الكتاب المقدس) تذاكر فيه لسان ملاخي وأرميا .

وتعجب مع هذا أن قد بدأ غزو الشمال الإيطالى بعد ثلاث سنوات من خطبته الأولى فى كنيسة دير سان ماركو .

اقتحم شارل الثامن ملك فرنسا أرض إيطاليا بجيش عرمرم . وصدقت نبوءته فى الإصلاح الذى سوف يبدأ على يد الراهب الجرمانى مارتن لوثر بلا خطب ، وبلا صراع . فمنذ اللحظة الأولى – ودون أية فكرة بأنه ثائر على روما – التى علق مارتن طريحاته ، وقضاياه الخمسة والتسعين، على بوابة كنيسة ڤيتنبرج فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ، انتشرت القطيعة ، وبسرعة النار فى الهشيم ، بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، أو ما وصف بالإصلاح (ريڤورم) ، ولم تمض أربع سنوات حتى غدا لوثر أشهر رجل فى بلاد الجرمان ، وقد أُلْقِيَ عليه « الحرم » من بابا روما ، متمردًا مطرودًا من حظيرة الإمبراطورية الألمانية ، وكل هذا يحل دمه ، لولا أن حماه وأخفاه فى قلعة « الڤارتبورج » فريديرك ملك سكسونيا . وكان لوثر – قبل إلقاء الحرم – قد وضع سنة ١٥٢٠ أربعة من أعماله التى أصبحت أساسًا للاهوت « الإصلاح » .

ومن أحلام سافونارولا ، وهو يفكر بشئون روما ، أن شاهد فيما يرى النائم صليبًا أسود فوق عاصمة الكثلكة ، بلغ عنان السماء ، مكتوبًا فوقه « صوت غضب الرب » .

قال فى خطبته : يا إيطاليا ! ، ياروما ! سوف أسلمكم لناس جاءوا ليمحوكم من بين الشعوب ، سيهجمون عليكم كالأسود ، ويجيء مع الحرب الوباء ، وسيبلغ ازدحام المساكن بالموتى ، أن ينادى اللحّادون فى الطرقات « هل من ميت ؟ هل من متوفى ؟ » . . . أيا روما ! أكرر ياروما ندائى لكم بالندم ، والتماس المغفرة . الندم يافنيسيا ، والندم ياميلانو ! .

ساح سافونارولا فى المدن الإيطالية ينادى بالويل والثبور ، ويتنبأ باقتراب ساعة الندم . وفى عام ١٤٩٠ جاءه القدر بما لم يتنبأ به ، وهو أن يصبح حاكمًا على فلورنسا . وكان الأمير لورنزودى ميدتشى هو الذى استدعاه إلى فلورنسا فى أغسطس ١٤٩٠ .

وارتقى الراهب الدومنكانى منبر كنيسة دير سان ماركو ، وجاءت خطبته تعليقًا على الحلم الرهيب ليوحنا . وحاز الخطاب الإعجاب العام ، فاستدعى إلى « الدومو » ، كنيسة فلورنسا الكاتدرائية ليقوم فيها خطيبًا دائمًا . وكان الأمير قد عينه رئيسًا لدير سان ماركو ، مدرسة حداثته . فقام بإجراء الإصلاحات فى الأديرة الدومنيكية ببلاد توسكانيا .

كان المنتظر والمفروض أن يتوجه رئيس دير سان ماركو إلى قصر

الإمارة بمناسبة تعيينه رئيسا للدير . ولكن الراهب العنيد لم يعن بأداء هذه الزيارة الرسمية والتقليدية . وكان تعليق الأمير الهادئ ، مبتسمًا : « أرأيتم ؟ هذا غريب عن المدينة ، جاء إلى بيتى ، ولم يتنازل بزيارتى » . ونسى الأمير أن ساڤونارولا لا يعتبر ديرسان ماركو بيت الرب ، لا بيت الأمير ، وتوالى عدم خضوع الراهب الرهيب لسلطان الأمير ، مع أن لورنزو دى مديتشى لم يتوان عن حضور صلواته ، ولم يتأخر فى أن يضع فى صندوق الدير (النذور) ذهبًا كثيرًا . فكان ساڤونارولا يوزعه على فقراء المدينة ، بدلا من وضعه فى خدمة الدير وكنيسته .

ولم يكتف چيرولامو ساڤونا رولا باحتواء أمير فلورنسا ، بل شرع بالتهجم على البابا فيما سيجىء . إنما كنت أود أن أبدأ هذا الفصل بالواقعة الأخيرة بين الأمير لورنزو وساڤونارولا . حين حضرت الأمير الوفاة ، استدعى الراهب الثائر — لأن لورنزو كان مدركًا لقدرة الراهب فى شخصيته وبلاغته ، وإقبال الناس عليه — ليعترف إليه بخطاياه ، طلابًا للغفران . وكان تعليق الراهب على الدعوة : « ثلاثة أعمال مطلوبة منك : **الإيمان برحمة الرب ، إعادة ما كسبته فى حياتك بما لا حق لك فيه ، وأن تأمر بإعادة الحريات إلى فلورنسا** . وفى لورنزو بالمطلب الأول والثانى . أما المطلب الثالث فقد أدار له وجهه إلى الحائط فى صمت كامل . وغادر ساڤونارولا **القصر دون أن يقدم الغفران لإنسان على باب الأبد !** .

كان ساڤونا رولا يعتبر لورنزو المديتشى طاغيًا ، فاسدًا ، عدوًّا

الدين ، فى حين كان لورنزو – على الرغم من استشعاره خطر هذا الراهب – يقدر صفاته كمعارض وخصم . وبعد وفاة أمير فلورنسا أصبح رئيس دير سان ماركو مجاهدًا فى سبيل تحرير المدينة ، بإعطاء الشعب حقوقه . وظل فى جهاده الدينى والسياسى والاجتماعى حتى نهاية حياته .

تولى الإمارة پييرو المديتشى ، وكان الوريث الخائب . سلم حصون فلورنسا للملك الفرنسى شارل الثامن ، وبذلك صدقت واحدة من تنبؤات رئيس دير سان ماركو.

وفى عام ١٤٩٥ نفيت أسرة المديتشى ، وغادر شارل الثامن فلورنسا إلى نابولى . وبذلك تولى الراهب الرئاسة دينيًّا وسياسيًّا على المدينة . بحكم كل هذه الظروف . فكان من أوائل أفعاله أن يهجر الشعب نظامه البرلمانى ليؤلف مجلسًا رياسيًّا . إذ لم يرضه فى هذا النظام أن الناس يجتمعون بميدان المدينة فيتعرضون فى هذا الهرج والمرج إلى إرهاب الحكام . وأغرب ما يمكن تصوره أن يقضى ساڤونارولا بأن السيد المسيح هو رئيس الدولة . وبهذا ألبست الدولة إسكيم الصفة الدينية ، وطبيعى أن يعمل الراهب الحاكم على تحقيقها كاملة فيأمر بمنع التفاريح والتباريح والرذائل ، وأن يتخلى الشباب والنساء عن ملابسهم المهفهفة ، وكل مظاهر الأناقة ، وحظر عليهم أعياد الكرنفال . وفُرضت عليهم فى هذا الاحتفال الأناشيد الدينية ، والمواكب الاحتفالية تقودها المقدسات المحمولة ، رموزًا للتبريك ، بدل الحشود المقلدة لوثنية الروم والرومان . وأوقف

التعامل المصرفى ، فهو داخل فى باب الرِّبا . وكان الشعب طوع بنان سافونارولا ، فأحرقت مخطوطات الكاتب المتفتح بوكاتشيو ، ولوحات الراهب بارتولوميو ، ولورنزودى كريدى ، وشعراء الكلاسيكية . ومجمل القول فى هذه الظاهرة هو القضاء على عصر النهضة والانفتاح (الرينسانس) . وما الذى ينتظر من إنسان تربى فى الدير ، ودرج على نظام الدير ، وانتقل إلى الدكتاتورية الكنسية وحكم بها ؟ فى أقلّه ، أن لا يسلم من الأخطاء فى الفكر وفى التنفيذ . وقد كان فإن الضغوط التى جدت ، وشعور العقلاء والمتزنين وهم أهل دين مهما قال فى ذلك الراهب الرهيب – بأن لا صلاح لنظام لا يتفق وسلوك الفلورنسيين ، وظهر ذلك فى صورة حزبيات معارضة ، لا اتفاق بينهما على المطلوب من تغيير وتبديل . إنما يمكن القول بأن المجموع المتزن لا يريد أكثر من حكم « أوليجاركى » (حكم الجماعة) .

وانكشف خطر الحوادث الفلورنسية ، فى روما . هذا والبابا إسكندر السادس (روديريجوبورجيا) يتلقى إهانات الراهب له ، مثل قوله بأن هذا البابا أبعد ما يكون عن المسيحية ، وأقرب ما يكون إلى المسيخ الدجال ! .

حاول إسكندر بورجيا ببراعته ، ومعسول لسانه أن يجر رِجل الراهب إلى روما . ورفض سافونارولا أن يمتثل لأوامر الرئيس الدينى الأعلى . فأصدر البابا أمرًا بمنع الراهب من الخطابة الكنسية . ولا يملك سافونارولا سوى أن يمتثل . ولكن الراهب أرسل خطابًا

إلى غازى إيطاليا ، شارل الثامن ، ملك فرنسا ، ينعى عليه تقاعسه ، مع أن واجبه الأول هو إصلاح شئون الكنيسة .

تلمس البابا إسكندر بورجيا سبيل الإغراء ، فاقترح بلطف أن يرقى ساڤونارولا إلى رتبة الكاردينالية ، وهى فى الطقوس الدينية ترفعه إلى مرتبة الأمراء . وكان رد الراهب العاتى إنه يفضل التاج الأحمر « الدموى » للشهداء .

صعد إلى منبر (« الدومو » بمعنى الكاتدرائية) عام ١٤٩٦ – وأمر ذلك محظور عليه كما ذكرنا – وألقى خطابًا ناريًا فى عيد المرافع (العيد الذى يسبق الصيام عند الكاثوليك) وكله هجوم على البابا بورجيا وعلى إكليروس روما ، وعلى أسرة المديتشى بل على أهل فلورنسا (مما يدل على إحساسه بتحرك أعدائه ، وإدراكه لحرج مركزه فى فلورنسا ، وبخاصة لدى « الذوات » وأصحاب المال والتجارة بسبب ما أصابهم من توقف حال السوق) . وظهرت فى مجموعات الشباب من يقاطعون خطبه . وانتهى الأمر بأعضاء « السنيوريا » إلى إيقاف ساڤونارولا عن الخطابة فى « الدومو » وذلك لإحساسهم بضيق الشعب من هذا النزاع المستشرى بين الراهب وبين الكرسى الرسولى .

وكان ساڤونارولا قد أحس بكل مايدور حوله من كلام ، وأدرك قرب النهاية . فاتخذ قرار عقد مؤتمر عام ، أرسل به كتبًا إلى جميع رؤساء الدول فى أوربا . وتلقط البابا بورجيا من شرطته خطابًا مرسلا من ساڤونارولا إلى ملك فرنسا شارل الثامن بدعوة إلى هذا المؤتمر .

أما كتابه للبابا رأسًا فقد كان يحذره فيه مما يضمره من شر ، وجاء في آخر الكتاب : « وبهذا أكون قد فقدت الأمل في نيافته . فاتجه إلى المسيح وحده ، فهو الذى يختار الضعفاء ليخزوا ويخذلوا أسود الأجيال المنحرفة ، وسيعيننى على إثارة المؤتمر فى مواجهة العالم ليرى قداسة العمل الذى أقوم به ، وأتألم من جرائه . وسوف يعاقب فى عدله ، كل من يضطهدنى ويعرقل عملى . أما فيما يختص بذاتى ، فأنا لا أسعى نحو مجد دنيوى ، وإنما أتوق بكل حرارة إلى الموت . وأدعو قداستكم ألا تتأخروا طويلا ، إذ يجب أن ترعووا فى سبيل خلاصكم .

كان الراهب يتخذ أهبته للنهاية . ويبدى استعداده لتحكيم إلهى بواسطة اختراق النار الموقدة (أورديل) ، وهو تقليد من العصور الوسطى . وهنا جاءته الاستجابة إلى طلبه ، حين أقبل عليه راهب فرنسيسكانى من الجنوب الإيطالى ، وأبدى استعداده للدخول معه فى النار ليتعرف حقيقته كمرسل أوغير مرسل . واستجاب صديقه الراهب الدومنيكانى إلى مشاركته فى التحكيم (بالأورديل) . وأشعلت النيران فى (الجورة) ووقف الرهبان الثلاثة على استعداد لعبور النار ، واحتشد شعب فلورنسا على جوانب « البياضة » . غير أن صعوبات طرأت طوال اليوم حتى انفضّ الناس من حوله ، وعادوا إلى دورهم تحت مطر منهمر ، وفى نفوسهم غُصّة ، وقد ظهر لهم ساڤونارولا كرجل عادى ، فلا هو هنا ولا هو هناك ! .

واحتشد أعداء ساڤونارولا ، وحاصروا دير سان ماركو ، مقر

الرجل ، وقبضوا عليه واقتادوه إلى السجن ، حيث بقى حتى يوم إخراجه ليُشنق ثم يُلقى فى النار . ومهما طال أو قصر حبسه فليس ثَمّة اتفاق على الإجراءات التى تمت معه من التعذيب الرهيب ، وما الذى جرى نتيجة لهذا من اعترافات أو رفض . وترجمة ذلك أمام العارفين بالأمور هى شىء فظيع ، وقد يحدث تحت التعذيب أن يرتد المحكوم عليه ، والأغلب أن تكثر الأكاذيب حول ما جرى ، وما أشك فيه هو أنه لا قدرة إنسانية . ولا احتمالا لهذه الأعمال البربرية ، فالكلام أثناءها لا يتعدى الصراخ والعويل ، والتماس الرحمة ، ثم الإغماء ، والمفروض أن المُعَذَّب يبقى حيًّا حتى تجرى عليه تقاليد الإعدام شنقًا ثم حرقًا ، سواء اعترف المتهم أو أصر على التمسك بما يعتقده ، فهذا لا يقدم ولا يؤخر . وفى حالة سافونارولا اختلفت الأقوال من الارتداد إلى الإصرار .

ويقول المؤرخ البريطانى سيموندز بأن صورة كبيرة للواقعة موجودة بمتحف مدينة بيروجيا ، صادقة فى تصوير مبانى الميدان « البياصة » وقصر السنيوريا فى ناحية ، وأمامها « اللوجيا » مبنى الحرس . وأنا واثق شخصيًّا بأننى رأيت هذه الصورة ، أو نقلا عنها أيام إقامتى فى فلورنسا وزيارتى لإقليم توسكانيا والأقاليم المحيطة بها من الإدرياتيك حتى الشاطئ الغربى لإيطاليا . وقطعًا زرت متحف بيروجيا وشاهدت اللوحة : فى وسط الميدان كوم كثيف من حزمات الحطب ، وقطع الأخشاب ، وفى وسطها الصارى الذى يربط فيه المشنوق سواء أنزل من حبل الإعدام حيًّا أو ميتًا . وفى الصورة نتبين

قنطرة من السقالات تمتد من ركن قصر « السنيوريا » حتى تبلغ موضع الكوم . وفيما أذكر « طشاشًا » رأيت صورة ثلاث جثث الرهبان فى ملابس بيضاء . وفيما أذكر هناك عمود الدخان الأسود ، إشارة إلى بدء حريق رفيقيه قبله . وعندما عُقدت الأنشوطة حول رقبته ، صاح واحد من الجماهير قائلا : « هيّا يانبى ، لقد حل وقت قيامك بمعجزة » . وتقدم الرئيس الدينى القائم بالعملية ، وخلع عنهم إسكيم الرهبان وقال لكل منهم « أفصلك من الكنيسة المجاهدة والمنتصرة » . وأجاب الراهب المصلح بثبات رجل مشرف على الموت : « مجاهدة أى نعم ، أما منتصرة فلا ، وهذه ليست كنيستك » . وآخر كلماته : « إن السيد قد تعذب مثل عذابى ، ومن أجلى » ثم شُدّتْ الأنشوطة حول رقبته ، وفى اللحظة ابتدأ الحريق ، وقطعًا لم يمس اللهَبُ الرجل حيًّا . وقيل بأن صبيًّا رأى قلبه وسط الرماد الذى ذر فى نهر الآرنو . وما برحت موجودة البلاطة التى وضعت حيث سقطت الجثة المحترقة . ومن العادة فى زماننا أن ترى فوق هذه البلاطة باقات زهر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو تذكارًا ليوم شنقه وإحراقه .

وبعد وفاته ، على التوِّ غدا قديسًا ، توزع محفوظات خطبه ، وغيرها . وصبت مداليات على شرفه . وصوره رافاييل ضمن علماء الكنيسة ، فى اللوحة المعلقة بحجرة « السنياتورا » بقصر الڤاتيكان . والأغرب أن تقدمت مقترحات من الكنيسة بضم اسمه إلى القديسين ، والكنيسة التى شنقته وأحرقت جثمانه هرطيقًا ، وفاسدًا ،

ولم يتم هذا التقديس ، إنما بعض كنائس الدومنيكان ، تجرى صلاة باسم « أوفيتشيودل ساڤونارولا » وانتشرت حول اسمه قصص خرافية كالمعتاد . ولكن الأهم من هذا أن الراهب الرهيب حيٌّ فى قلوب أهل فلورنسا .

المرأة فى عصر الرينسانس

يقول بوركارت فى فصل بهذا العنوان : « نظرة الارتفاع والسمو بعصر « الإحياء » ، تفرض اعتبار المرأة مساوية للرجل » . ويرفض المؤرخ الفرنسى المعاصر « ديلومو » هذا الادعاء قائلا : « إن كان صبيان الطبقة الميسرة أخذوا طريقهم رويدًا إلى المدرسة ، فالأغلب أن البنات لبثن بالبيت ، ولاشىء يبرهن أن المساواة بين الجنسين كانت قائمة ، ومدينة ألكالا « بأسبانيا » أول مدينة أوربية بها مدرسة للإناث ، وهذا منذ مطلع القرن السادس عشر ولم يَسدُ تعليم الإناث إلا فى القرن السابع عشر ، وبفضل راهبات « الأورسولين » . ثم يناقض ديلويو نفسه بقوله عقب هذا : « ومع ذلك ، فإن المتعلمات فى القرن السادس عشر تفوق عددهن عن أى عصر سابق » وعذره فى هذا التناقض ربما كان لاعتباره أولئك المتعلمات درسن فى منازلهن !

ويقول جاكوب بوركارت : « ولا معنى للقبول بما يروق لبعض البحاثة من « النكش » على مقالات ومقولات يسخر الرجال فيها

بالجنس اللطيف . ويحسن ألا نحمل كلام « الأريوستى » الشاعر محمل الجد فى ادلائه إلى صاحب له بأنه « يعتبر المرأة طفلاً كبيرًا ، يصعب التحكم فيه . ويجب على الرجل أن يعرف كيف يسلك فإن البون شاسع بين المرأة والرجل » . ولاشك فى هذا ، إنما بوركارت يتحدث عن « المساواة بين المرأة المثقفة ، على مستوى واحد مع الرجل ، ونسمى هذا ونعرفه بالاتحاد بين ذكاءين ، وروحين ، عندما أصبح حقيقة بالزيجات الناجحة بأوروبا فيما بعده » .

كانت تربية الأنثى فى الطبقات العليا على مستوى تربية الرجل ، فلم يتردد إيطاليو الرينسانس فى إعطاء أبنائهم وبناتهم ذات الدراسات الأدبية بل اللغوية . ولقد عرفوا بنات من أسر الأمراء بَلَغْنَ أرفع مدى فى إتقان اللغة اللاتينية . وكانت النساء يشاركن على الأقل فيما يطالب به الرجال من مؤلفات حتى يجئ الحديث بين الرجل وقرينته قيمًا ومناسبًا .. وعنيت النساء بالشعر ، وقرضه فيما يعرف « بالكانزونى » . « والصونته » والارتجال . والواضح أن شِعرهن الغرامى مثلا لم تظهر عليه خاصية نسائية ، بل كُنّ فيه كالذكور . أى إنهن لايخفين عاطفتهن احترامًا للأنوثة ، حتى لاتكاد تصدق أنه قريض أنثوى ، إذا غاب عنك اسم الشاعر ، وتميزت المرأة الإيطالية عن غيرها من نساء أوربا ، **لأن هؤلاء الاخيرات لم يعرفن المساواة بالرجل إلا بعد قيام الإصلاح البروتستانتى** .

ولقد بلغ من تربية المرأة فى عصر الرينسانس أن ظهرت من بينهن بطلات فى أكثر من درب فلا فرق فى هذا بين الذكر والأنثى ،

فتربية المرأة فى ذلك العصر اتجهت إلى نوع من « الاسترجال » . يكفى أن تطالع فى قصائد الشاعر « الاريوستى » صفات بطلاته ، ومن أمثلة هذا الاسترجال : كاترين سفورزا ، التى قامت بعد مقتل زوجها بالدفاع عن مدينة فورلى ، أولا ضد حزب قتلته ، وفيما بعد ، ضد تشيزارى بورجيا . ولقد تغلب ذلك الوحش عليها ، ولكن شهرتها بقيت لامعة حتى أطلق عليها مواطنوها لقب « سيدة إيطاليا الأولى »[1] .

ولنعد إلى المؤرخ الفرنسى المعاصر « ديلومو » الذى ناقض بوركارت فى حكاية المساواة بين الجنسين . فها هو ذا يضرب الأمثال ببنات مؤلف « الأطوبيا » توماس مور ، وشقيقات « هيومانى ورياضى » من نورمبرج . وكن من أشهر النساء العالمات فى زمانهن ، ضليعات فى اللاتينية ومطالعة الإغريقية ، ثم يعود إلى نساء الرينسانس العالمات فى زمانهن « ڤتوريا كولونّا » أميرة بسكارا ، كانت شاعرة فَذَّة امتدحها ميكلانجلو . ثم يقول : وهناك شهادة بأن

---

(١) وعندما اخترت ثلاث ملكات من التاريخ المصرى ، تدارست طبائعهن وأعطيت قصب السبق للصعيدية «حاتشبسوت» لا انتقاصاً من «أم خليل» — (شجرة الدر) وما صنعته بعد وفاة زوجها السلطان ، من إخفاء موته ، وتقليد توقيعه لاستمرار مواقع الدفاع ضد الصليبيين . ولا من «بنت الزمار» — (كليوباترا الكبرى) . كل ما فى الأمر أنى لاحظت فى سلوك هاتين الملكتين العظيمتين ناحية من نواحى الضعف الأنثوى : غيرة شجرة الدر من زواج بعلها عليها ، وتدبير قتله . وسلوك كليوباترا فى غرامياتها ، حتى وهى شابة يافعة ، وقد أودى بها ، وبعشيقها مارك أنطونيوس حيال انتصار الإمبراطور عليهما فى المعركة البحرية المشهورة .

النخبة النسائية نفذت إلى الثقافة ، قال عنهن واحد من رجال القانون فى القرن الخامس عشر : « لم أك أتصور ، حتى تحققت ، من أن نساء فلورنسا على علم بفلسفة الأخلاق ، والطبيعة والمنطق والبلاغة » . وأول صالون أدبى افتتح فى باريس كان فى منتصف القرن السادس عشر وفى بيت نبيل من بلاط الملكة كاترين دى مديتشى . وكان هذا النبيل قد عاش فى إيطاليا وتراسل مع ايراسم الفيلسوف . إنما زوجته هى صاحبة ذلك الصالون الشهير . وكانت حسناء ذكية مثقفة ، هى وبناتها : كامى ، ولو كريسيا ، وديان . وكن موضوع قصائد الشعراء .

وطبيعى أن أولئك النساء يَهِمْنَ بالفن . فإزابلا ديستيه كانت حامية المصور « مانتنيا » وقربت ليونارد وداڤنشى ، وتبادلت الرسائل مع أهم مصورى العصر : بيروجينو وبلينى ولورنزوداكوستا ، وكوريوجيو ، وتسيانو . كما دعت ديان ده بواتييه إلى قصرها بفرنسا بنڤينوتو تشلينى . وما من شك فى أن التطور الفلورنسى ، المتنقل إلى كافة أوروبا ، كان للنساء فيه أدوار هامة .

ولقد آن التحدث عن كتاب مشهور ، منذ عصر الرينسانس إلى اليوم عن آداب المجتمع وفضل وجود النساء كعنصر أساسى لرهط متحضر . ألا وهو كتاب « رجل البلاط » (الكورتچيانو) تأليف بالتساوى كاستليونى . ويمكن وصفه اختصارًا بأنه مربى « أولاد الناس » ، وأعنى بهذا المصطلح المملوكى ، أبناء الطبقات الممتازة بالسلطان أو بالثراء أو بالفكر والعلوم الصادرة عنها . والفنون التى

تنطلق من أعماق الشعور ، مؤسسة على فكرة مستنيرة فهو كتاب تربوى أبعد مايكون عن المدرسية ، وإن أتخذ فى بعض فصوله شكل الحوار ، وحديثه يتناول قواعد الأدب الاجتماعى ، واللباقة ، والقيافة . مؤلفه دبلوماسى من مواليد مانتوا ، تمرس فى بلاط إمارة أوربينو ، وكانت هذه الإمارة سامية المقام فى حركة الاحياء بفضل أميرها الدوق فدريكوردا مونتيفلترو نصير الهيومانزم ، وحامى رجال العلم . والمدينة مسقط رأس رافائيل والمعمارى برامانتى . وقد أدرك كاستليونى قيمة هذا الوسط العالى ، فألف كتابه للطبقة المرفهة التى تميزبها هذا البلاط . وبذلك كان يمثل حصافة الأرستقراطية ، وكان أثر كتابه واضحًا على نبلاء إيطاليا وخارج إيطاليا ، فى التعريف بالقيم الجديدة للحضارة : **التعليم والتربية والإقبال على الفنون والآداب ، والامعان فى احترام المرأة** . وقد صدر لكتابه ١٦ طبعة إيطالية (مابين عام ١٥٢٨و١٥٨٧) وست طبعات من الترجمة الفرنسية (ما بين ١٥٣٧ و١٥٩٢) وترجم إلى الإنجليزية سنة ١٥٦٢ ، ونشر فى عصر الملكة اليزابيث الأولى : **وما برح الكتاب معروفًا ومقروءًا إلى اليوم** .

كان كاستليونى من أتباع الأفلاطونية الجديدة ، وكان جنديًّا شجاعًا ، وفنانًا صديقًا لرافائيل فى روما ، وعلى اتصال بالدوائر الهيومانية التى تحيط بالبابا ليون العاشر . وعندما توفيت عقيلته سنة ١٥٢٠ ، تحول إلى الرهبنة ، وأوفده البابا إلى أسبانيا ، « قاصدًا رسوليًّا » وتوفى فى طليطلة عام ١٥٢٩ ، أى بعد عامين من إصدار كتابه (ولد كاستليونى فى مانتوا عام ١٤٧٨) .

كانت الأفلاطونية الجديدة تنادى بحقّ الجمال والحب . فهى الأصل فى وضع المرأة موضع التبجيل فى حضارة الغرب . وإن كان الفضل الأسبق للفيلسوف فتشينو ، ويتضح ذلك من تعليقاته على « مأدبه أفلاطون » ثم على « فيدرا » . ومذهب الحب فى تعليقاته يعرفه بأنه « لب التّوق (أو التعلق) بالجمال » . وقال كذلك : « نحن لانرى الروح ، فلا نستطيع أن نشهد جمالها إلا ممثلا بجسدها . فالجسد صورة أو ظل للروح ، والحُسن شعاعة من الخالق ، ينبوع أبدى للجمال » .

وقال كاستليونى ، وهو تلميذ فتشينو : « الجمال فى الجسد » وأكثر منه فى سيماء البشر . وبهذا يتمثل التّوق والرغبة التى نَصِفُها بالحب . والحب هو فضل الخالق سبحانه ، وكأنه ضوء الشمس منعكسا حيث تقع أشعتها ، فتضىء لطفه وروعته . والطيبة صنو الإيناس ، كما هى قرينة « الجمال » ومن الواضح أن الأفلاطونية الجديدة فى عصر الإحياء قد نقلت الفكرة الأفلاطونية الأصيلة إلى المرأة .

* * *

تدين الإيطاليات لعصر الإحياء بالكثير .. فقد كان العصر الوسيط قاسيًا على بنات حواء ، فهو العصر الذى لم يغتفر للمرأة خطيئتها الأولى فى جنة الفردوس ، ورأى فيها **العدو الأول للرجل** . وصفها اسكولائى – فى القرن الثالث عشر – بأن عقليتها وقيمتها الأخلاقية لاتتميز عن الأطفال : فخرها وعزتها فى الخضوع لإرادة

الرجل ، وأكثر من هذا أن تلتزم الصمت ، قال دانتى وهو العليم بالنساء عِشْرَة ، وإنصاتًا لحديثهن : « إنهن كثيرات الكلام فى براءة .. ثم أخذ يتحدث بعضهن إلى البعض ، كالمطر المنهمر مختلطا بالجليد ناصع البياض . ولهذا خُيل إلىَّ أن حديثهن يختلط بالتنهدات .. » امتدح دانتى فيهن فضائل العقلانية علمًا وحكمة ، كياسه ولطفًا فلا عجب ودانتى مجد بياتريس كما أن بترارك تغنى فى شعره بمعشوقته الفقيدة لاورا .

أما بوكاتشيو فى « الديكامرون » فيقول « بأنهن من غير جنس الملائكة ، يخشين الموت بالطاعون المنتشر. اجتمعن فى ركن من الكنيسة ، فى ذلك العام الأسود الطالع ، حديثهن لايزيد على أنهن يطلبن الحياة . ووفد على الكنيسة رهط من شباب الطبقة الممتازة ، لا ليؤدوا صلاة ، بل بحثا عن صديقاتهم . واتفق مجموعهم على النزوح عن فلورنسا احتماءً بالريف ، فى انتظار توقف الوباء الوارد » .

وتحولت فلورنسا فيما بعد من مدينة حصينة بقلاعها ، وضيق مساكنها ، إلى مدينة القصور الفسيحة ، كما انتشرت الفيلات فى رياض المدينة ، تحيط بها رياض غنَّاء .

لم تك فلورنسا وحدها فى هذا التحول ، **وإنْ كان لها فضل السبق على مدن الشمال والوسط الايطالى فى أحياء هذه الحضارة التى لم يحلم بها أهل القرون السالفة منذ تفكك الإمبراطورية الرومانية .**

بيكوديلا ميراندولا

ترددت فى اختيار واحد من أهل الفكر والفلسفة فى عصر الإحياء ، وأمعنت النظر فى ثلاثة أسماء ممن تنطبق عليهم صفة الهيومانية . والثلاثة الذين وضعتهم على رأس الهيومانية هم مارسيليو فتشينو ، وبيكوديلا ميراندولا ، ونقولا دى كويس . وقضى الأمر باختيارى لبيكو منذ أن نقلت وصفا له بقلم شاعر من أصدقائه ، عدّلت فيه بما لاينبئ عنه بالذات . وبدأت تأبينى لأخى وصديقى العظيم الدكتور محمد كامل حسين بقراءة ترجمتى المعدلة ، وواصلت تأبين محمد كامل حسين بعد أن كشفت عن مصدر ترجمتى ، وهو وصف لهيومانى عظيم من ذلك العصر الباهر .

إن اشتهار فكرة « الرجل العالمى » لوصو أنيڤرسالى .. يعود الفضل فيها إلى ليوناردو داڤنشى ، أما الرجل الذى ساهم فى نشرها فهو مؤلف كاستليونى كتاب « رجل البلاط » .

كان بيكو واحدًا من الهيومانيين القلائل الذين كادوا يقعون تحت أيدى محكمة التفتيش بتهمة الهرطقة . فى حين أن أغلبية الهيومانيين

تقبلوا الدجماطية الكنسية ، توقيًا من هذه المحكمة (الإنكيزيسيون) .

كان پيكو خصمًا للفلكيين المنجمين يقول بأن أصحاب النجوم هؤلاء يؤمنون بقوة الأفلاك ، لأن الكواكب تحمل أسماء آلهة وثنية ، وكانوا يعتبرون فى العصور القديمة أن تلك الأوثان تتحكم فى حياة البشر . وكان تنديده بهم نتيجة تسجيله فى أجندته للوقائع التى يتنبأ بها المنجمون . فانتهى إلى أنها لم تصدق إلا سبع مرات ، وخابت فى أربعين ومائة مرة ، وقال : « إذا كان التنجيم علمًا فلماذا لايشعرننا باتفاقهم : لقد اعتمد هؤلاء على جداول لحركة الكواكب ، ولكن هذه الجداول كانت معروفة من القدم بأنها مغلوطة » .

ومناقشة پيكو هذا الموضوع لم تعتمد على مجرد ملحوظات ومشاهدات . فإن مفتاح حجته وبرهانه كان قائما على « أن الله أعطى الإنسان القدرة على اختيار طريقه ، وقضائه وقدره . فكيف تكون هذه الكواكب – وهى مجرد أحجار صخرية بمسميات وثنية – هى القادرة على التأثير فى عطية الله للإنسان » . كان موقفه من التنجيم ثابتًا ، بخلاف فتشينو شريكه الأكبر ، فإنه لم يرفض تمامًا فكرة تأثير الكواكب فى حياة الإنسان . ومع ذلك فقد أشار إلى أخطاء هؤلاء المنجمين .

أما « دى كويس » فهو من الهيومانيين الجرمان العظام ، وقد امتاز هو والهيومانى الأسبانى يوحنا سيجوفيا برفض فكرة الصليبيين فى محاربة المسلمين ، والبحث عن نقاط توصل إلى اتفاق مع المسلمين .

وفكرا فى عقد مؤتمر ، وطالع كل منهما القرآن على أساس أن وعى مافيه هو أهم الخطوات فى سبيل جمع هذا المؤتمر المسيحى – الإسلامى .

قال دى كويس إن الجهل يورث الخطل ، والشر . وأخذ يبحث فى ديانة المسلمين ، حتى بلغ حقيقة الإنجيل فى القرآن . ويعنى بهذا إيضاح ماوراء المناهضة والاختلاف ، مادام القرآن والإنجيل قائمين على قاعدة مشتركة . ولكن أول ماصدمه فى هذا البحث هو رفض القرآن لألوهية المسيح وصلبه ، وقيامته . فيكون معنى هذا رفض القرآن لطبيعة المسيح ، أى رفض عقيدة المسيحيين . واضح عند المسلمين بأن المسيح ابن سيدتنا مريم ، وأنه من روح الله . ولكنه إنسان كبقية البشر ، ونبى من أنبياء الله . والمسلمون يعترفون بنبوة غير قليل من أنبياء « الكتاب المقدس » فى العهد القديم ، ومن أهمهم ، بعد موسى وإبراهيم ، عيسى بن مريم البتول .

وكان مراسله الأسبانى يوحنا سيجوفيا قد أتم قبل وفاته عام ١٤٥٨ ترجمة القرآن . ثم حدث عقب ذلك سقوط القسطنطينية بجيوش السلطان العثمانى محمد الفاتح . وزاد ذلك من هم دى كويس ، وكان متفقًا مع القس الأسبانى على ألا سبيل إلى الاجتماع بالمسلمين قبل فحص نص القرآن وفهمه الصحيح . وأهم من ذلك أن دى كويس ، بوحى إنسانيته وهيومانيته يرى أن من يبحث عن اتفاق مع عدو يجب ألا يغض من مميزاته .

وقررت أكاديمية فلورنسا (التى أنشأها كوزيمودى مديتشى أميرها) بحث الوصول إلى « توليفة » فلسفية تحقق التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، على أن يتم ذلك متفقا مع كافة التجارب الدينية .

ولكن مارسيلى فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) ، وتلميذه پيكو ديلامير اندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) ذهبا إلى أبعد من دى كويس حين قال هذا الأخير : « الكتب المقدسة ، والفلسفات تؤكد أمرًا واحدًا بطريقتين مختلفتين وأضاف قائلا بأن « الإيمان بالخالق جلَّ وعلا ، أمر طبيعى فى الإنسان ، كالصهيل للخيل ، وأنه عندما يتكلم عن الدين يعنى غريزة طبيعية جامعة لواقع واحد ، وهو أن ابن آدم يدرك ويعبد عناية ربانية هى صاحبة الوجود » . وحاول فتشينو أن يستخرج دينا علمانية من الأفلاطونية قديمها وجديدها ، ومن المسيحية وكان ذكاء پيكو ديلا ميراند ولا يدفعه إلى النظر فى المنابع الإغريقية ، والعبرانية والمسيحية والإسلامية وبذلك « نكون قد جمعنا بين كل الفلاسفة دون الاستئثار بواحد منهم ، بحثًا عن التوافق الروحى والكونى الذى نصل به إلى حقيقة صوفية كونية ، لاعلاقة لها بزمان بعينه » .

الكونت چوفانّى پيكوديلاميراند ولا ابن أمير مدينة ميراند ولا فى الشمال الإيطالى ، قرب فيرادا . درس فى جامعة بادوا ، وكان أستاذه إلياس ديل مديجو يهوديًا ، تلقى عليه دروسه فى اللغات العبرية والعربية . وكشف الأستاذ له عن أسرار الباطنية الإسرائيلية وهى

المعروفة بالقبالانية . ثم نزح پيكو إلى باريس حيث عاش شتاء واحدًا (١٤٨٢ – ١٤٨٣) ، ومنها ذهب إلى فلورنسا (١٤٨٤) يدرس على فيتشينو الذى وجهه إلى دراسة أفلوطين وكتابات دنيس الأديوپاجى . ثم توجه إلى پيروجيا والتقى هناك بمتخصص فى «القبالانية». وفى العام ذاته وصل إلى روما وأعلن فى جامعتها أن « القبالانية » جزءًا مما أوحِىَ به إلى إسرائيل ، ورفض الجحيم **عقابًا أبديًّا** للمذنبين الخاطئين ، **لأن حياتهم محسوبة بنهايتها** . وهاجم عبادة الأوثان . وأثار كل هذا عليه غضبا شاملا ، اضطره إلى الاختفاء والهرب إلى باريس ومنها عاد إلى إيطاليا . حيث وجد الحماية فى بلاط أمير فلورنسا لورنزو الأفخم . وكانت فلورنسا معروفة بأنها موطن الأفلاطونية الجديدة ، وبتشجيع صديقه العلامة فتشينو ختم كتابه الكبير وعنوانه « سبعة ظواهر الخلق » . وفى عام ١٤٩١ ركز دراسته فى تفسير « العهد القديم » وأظن القارئ يعرف أن هذا الجزء القديم من الكتاب المقدس « مكتوب أصلا باللغة العبرية » . وأود التنبيه إلى أن البروتستانت – وخاصة جرمان الشمال – يعنون عناية كبيرة « بالعهد القديم » . ولقد قابلت سويسريًّا من آباء المعبد البروتستانتى فى جينيف ، وعرفت منه هذه الحقيقة ، وأن دراستهم الدينية تفرض عليهم إجادة اللغة العبرية ، ولعل القارئ يعرف أن « التوراة » جزء من « العهد القديم » وتشتمل عند الإسرائيليين على خمسة أسفار تبدأ بسفر « التكوين » وتنتهى بسفر « التثنية » فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مواب حسب قول الرب .. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

وانتهى من دراسته « للعهد القديم » بالاستماع والمتابعة لنشاط سافونارولا فى إصلاح الكنيسة والاكليروس . وتحول فيما تبقى له من عمر قصير إلى التقشف والزهد . وتوزيع ممتلكاته على أعمال الخير .

وتوفى فى ١٧ نوفمبر ١٤٩٤ فى عامه الأول بعد الثلاثين . فى ذات اليوم الذى اقتحم الملك شارل الفرنسى غازيًا إيطاليا ، بدخول فلورنسا .

وقد يتعجب القارئ من أستاذية اسرائيلى بجامعة « إيطالية » مرجع هذا أن كانت فى ذلك العصر جاليات يهودية هامة تعيش فى فرنكفورت ، وبراج ، وروما ، وطليطلة ، ومن باب أولى فى فلورنسا ، والهيومانيون اهتموا بالدراسات العبرانية ، مثل عنايتهم بالإغريقية ، وكما سبق القول كان الغرض من التبحر فى اللغتين – بالإضافة إلى الناحية الحضارية – هو الاتصال المباشر بالكتاب المقدس فى لغتيه الأصليتين : العبرية « للعهد القديم » ؛ واليونانية « للعهد الجديد » . وإيطاليا الهيومانية هى التى قدحت من الثقافة العبرانية إشعاعًا عالميًّا ، وقد صارت مكتبة الفاتيكان فى حكم البابا نقولا الخامس أغنى المكتبات فى المخطوطات « الإنكونابل » (وهى المخطوطات التى لا يوجد منها فى العالم سوى نسخة واحدة) .

وفى عام ١٩٨١ كانت فرصة لى أن أزور مكتبة « ديرسان جال » بمدينة سان جال فى سويسرة ، وأطلع على ثرائها فيما يختص بالدراسات الدينية ، ومارأيته معروضًا من مخطوطات .

« وانكونابلات » للكتاب المقدس . وعجيب أن أخرج من دار كتب بإمتاع يقرب من متعة زيارة متاحف الصور والتماثيل الشهيرة .

وانتهى فتشينو إلى وظيفة كنسية ، كما انتهى پيكو ، باتباع الراهب سافونارولا ، المصلح الأول للكاثوليكية والمنتهى بالإعدام شنقًا ثم حرقًا . وختم پيكو حياته بالتجرد عن ممتلكاته ، وقد بلغ الواحد والثلاثين من عمره .

لماذا تميزت فلورنسا وإيطاليا
بميلاد الرينسانس ؟

وَصْفٌ أساسي جدير بالتساؤل : أن يبدأ عصر الإحياء فى إيطاليا وتكون فلورنسا هى السبّاقة فى المضمار . وإليك الإجابة :

هذا التحرك الحضارى العجيب ، مصدر التطور فى أوربا ، شمل الآداب والفنون بل الفكر بعامة ، سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو علميًّا أو دينيًّا . وإن كان الأدب سباقًا ، فإن التصوير والنحت والعمارة فازت بقيادة لم تقف عند المحلية فى إيطاليا ، بل انتقلت إلى المجموعة الأوربية كلها ، وبسرعة لها معناها فى تقدم المجتمع الإنسانى وما واصل من خطوات وتطورات حضارة فاز بها المجتمع الأوروبى بمركزه العالمى إلى اليوم .

واجبنا أن نتابع ذلك التحرك خطوة خطوة فى ميدان الثقافة ومصادرها – وأولها المصدر الحى لكل حضارة : ألا وهو « الفكر الحر » للفرد ، والمجتمع .

طلب البابا أوربينوس الرابع (١٢٠٠ – ١٢٦٤) من توماس

الإكوينى ترجمة وتعليقًا على أعمال أرسطو . وكان هذا البابا ميالا فى اجتماعاته ، وعلى مائدته ، إلى رجال الفكر ، ولم ينجح سان توماس ولا تلاميذه بنقل روح الإسكولائية إلى إيطاليا . فالإيطاليون بطبيعتهم لاينحون إلى المنطق لذاته . ولا يعنيهم من الفلسفة إلا أن تقوم على أساس علمانى ، مما يعود بالخير على الإنسان لإسعاده . لاتهمهم « الميتافيزيقا » ، وإنما الأخلاقيات (إلا طيقا) . وهذا هو دانتى يؤكد أولوية العقلانية ، بشرط أن يكون « حرًّا » والحرية تحكمه .

معنى هذا أن الفكر الإيطالى يختار النواحى العملية من أفلاطون وأرسطو وزينون وسنيكا وهذه النواحى ضابطها القانون الرومانى . ففى القرن الرابع عشر كان هذا القانون يؤلف أساس التربية اللبرالية .

ومعنى ذلك أيضًا أن الفكر الإيطالى ظل حريصا على حرية الفكر حتى فى المسائل الدينية ، مع احترام روح الديانة فى العلاقة بين العبد وربه . وقد يرى من يعنون بهذا الموضوع أن يراجعوا سيرة سان فرنسيس الأسيزى ، مؤسسى الرهبنة الفرنسسكانية . فهو يمثل الضمير الدينى فى صميم الإنسان الإيطالى . وكان نجاحه فى بلاده عظيمًّا حتى وصف هذا النجاح وكأنه أقام كنيسة داخل الكنيسة اللاتينية الرومانية ، أساسها الروح والحب . وأضيف هنا دراسة جديرة بالاطلاع فى هذا الموضوع لايرنست رينان فى « مجلة العالمين » (ريڤيو ده دوموند) عدد ٥ يوليه ١٨٦٦ . عما يوصف « بالإنجيل الأبدى » ، المنسوب إلى راهب سيتوكى « بواقيم ده فلور » . والنسبة للدير المشهور فى بلده سبتوه بفرنسا . ومن رهبانه المشاهير سان برنار .

وسيدرك القارئ أن هذه التحركات داخل الكتلكة **بعثت فى حياة الإيطاليين الإيمان الدينى مؤسسا على حب الحرية .**

ولعل هذه الحقيقة توضح للقارئ معنى التّحرّر من ضيق « العصر الوسيط ، الذى صححته الطبيعة الإيطالية فى فلورنسا ، عاصمة توسكانيا ، وانتقل إلى غيرها من أمارات الوسط والشمال . وواقع الأمر أن روح الإنسان يثقلها ويشقيها الكبت ، والضغط على الحياة الخاصة ، بله حياة المجتمع . فالكبت ، أو الضغط يضعف الشخصية ، والإرادة ، ونشاط الروح .

وأيسر الظواهر التى تفسر السبق الإيطالى فى إحياء الحضارة الكلاسيكية هى أن الإيطاليين عاشوا على مقربة ، بل مع آثار الرومان . وأن مدينة روما أنشأها الرومان . وقد احتفظت الرياسة الكنسية بوجودها فى عاصمة الإمبراطورية . وربما قال قائل بأن آثار الرومان قائمة فى كل البلاد التى غزتها ،وفتحتها جيوشهم ، من الشمال البريطانى إلى أقصى الجنوب فى شمال أفريقيا ، ومن أقصى الشرق ، إلى شاطئ الأطلنطى غربا .

ولو أننا حصرنا كل الباقى من تلك الآثار فى الأصقاع المختلفة ، فإن إيطاليا ، وخاصة الوسطى ، وفى الشمال تحتوى على أضعاف كل مايوجد فى البلاد الأخرى .

والواقع أن الإيطاليين قبل حركة الإحياء كانوا يحسون ويقدرون أهمية العالم القديم ، بل هم اتجهوا إلى ماوراء الرومان ، أى إلى البلد

الذى أورث روما أسس حضارتها ، وأعنى اليونان . ولم يجئ عصر الإحياء من فراغ بل اكتمل وعيه بالعالم القديم . وعندنا مثل واحد سبق لنا التحدث بشأنه فى هذه الصفحات ، وهو الشاعر بترارك ، وكان أول الهيومانيين الذين أدركوا وقدروا ما أورثهم التاريخ من آثار أجدادهم . وحياة بترارك سابقة على عصر الرينسانس .

يُحَقّ لنا إذن أن نستنتج بأن هذا الخط الكامل الذى لم ينقطع . هو الذى فجر حضارة « الإحياء » فى إيطاليا قبل أى بلد أوروبى آخر . وعندنا الدلائل على ذلك التواصل فى أن الكنيسة الكاثوليكية استقرت على اللغة اللاتينية ، مثل استقرارها فى روما . فقد كانت البابوية تعتبر نفسها وريثة إمبراطورية الرومان . وظل القانون الرومانى قائما ، وتم هذا فى عهد « القوط » الذين قضوا على الإمبراطورية .

روما هى الرابطة بين الحاضر المسيحى ، والماضى الغابر ، وهى عند الكاثوليك عاصمة العالم . منذ أن غدت مصدر السلطان عند أباطرة الجرمان ، وملوك الفرنجة ، يحجون إليها ليتوجوا بيد بابا روما .

ويحسن ألا ننسى أثر إمبراطورية بيزنطة فى حركة الرينسانس ولم يكن مجرد بعد عن إيطاليا ، بل كانت دائما ذات أطماع ، وماهى الدول الأوربية التى لم تكن لها أطماع فى البلاد الساحرة ؟ : أسبانيا وفرنسا وألمانيا . فحتى القرن العاشر كان البيزنطيون أسيادًا مباشرين على أرض مدينة بارى ، وغيرها فى جنوبى إيطاليا . وكان لهم مقام مرموق لدى جمهورية البندقية ، وعند أهل نابولى ، وساليرنو ،

وأمالفى ، وكل زائر لفنيسيا ، عليم بشىء من تاريخ الفنون ، يلاحظ فى أبنيتها الهامة شبهًا بأسلوب بيزنطة .

فكنيسة سان مارك هى أثر بيزنطى عظيم (القرن ١١) على أن ڤنيسيا كانت بحكم موضعها ، واستقرارها فوق جزائرها ومياهها ، تعتبر فى معزل خاص . إنما الأثر البيزنطى يظهر بأروع بيان فى آثار مدينة راڤنّا على الشاطئ الشرقى لايطاليا . لقد زرتها فى فترتين من حياتى . الأولى لم أفهم أصل آثارها البيزنطية . وفى الفترة الثانية كنت بدأت أتبين طريقى فى ظلام تاريخ لم أقرأه ، ولم أمارس دراسته ، إنما كنت قد زرت اسطنبول ، ودخلت أيا صوفيا . وكان أتاتورك قد أشار بإعادتها إلى أصلها البيزنطى ، وإزالة الجص من حيطان كانت مغطاة بفريسكات بيزنطية ، رأيت واحدًا منها فى زيارتى . والذى يضع لهذا الفن توقيعه الغالى هو : التصوير بالفسيفساء يكفى أن تشاهد كنيستى ڤيتالى وسان چوفانى فى راڤنا لتحس بأصالة بيزنطيتها . وهذه من آثار الإمبراطور چوستنيان ، وسترى صورته ، وصورة الإمبراطورة عقليته تيودورا بموكبها على جدران سان ڤيتالى ، كل ذلك بطوب الفسيفساء ذى اللون السماوى الجميل .

ويَتَبقى لنا فى قيام عصر الإحياء ذكر للفن والفكر الإسلامى . كان أثره عامًّا ، دون خصوصية البيزنطى . ومن الناحية التاريخية كان العرب قد استولوا (من القرن التاسع حتى الحادى عشر) على صقلية . وإذا كان النورمان قد أزاحوهم فإنهم استبقوا العلم العربى . والطب العربى . والفن والشعر . وكان الإمبراطور فريدريك الجرمانى

من أسرة الهوهنشتا وفن (تلك الشخصية العجيبة المتأثرة بالإسلام إلى حد كبير) هو الذى حافظ على التراث الإسلامى فى الجنوب الإيطالى . كان المسيحيون الغربيون يكرهون هذا التدخل الإسلامى ، ولكنهم يحترمون حضارة الإسلام ، ويحسدون أهلها ، مع نظرة إعجاب بإكراه لروعة هذا الفن ، وانفساح حضارته ، وخاصة الناحية التى شرفت عقلية العرب أصحاب الأندلس ، لمعرفتهم بأسرار أرسطو ، وأرسطو عند الغربيين فى ذلك الزمان كان يمثل فيلسوفاً انكشفت له آثار الألوهية . ولهذه المعرفة الإسلامية لم يضع دانتى فى جحيمه ابن رشد ، بل وضعه فى المنطقة المسالمة بين الحكماء : هوراس وأفلاطون .

ومع أن صقلية العربية هذه لم تُجار مسلمى الأندلس فى روعة أدبهم وعلومهم ، فقد كان لها مدارسها فى الطب ، والفلك والرياضيات ، والتشريع ، وفى التفسير ، وفى متصوفيهم ولغويهم ، والمؤرخين والجغرافيين والشعراء .

وبمجئ النورمان وإلى صقلية أعاد هؤلاء المنطقة إلى العصر الوسيط ولكنهم أبقوا على المسلمين فى أخطاطهم بمدينة باليرمو ، كما ثبت كل ذلك فى كتاب عربى من ذلك العصر ، منازلهم وأحيائهم ومساجدهم وقاضيهم وحماماتهم وأسواقهم . كما لم يخلُ بلاط النورمان من العلماء والجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، وكلنا فيما أظن نعرف كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للإدريسى ومازال كتابه

يحمل إهداءه إلى الملك النورماندى روچيه ويعرف الكتاب إلى اليوم « بالروچارى » .

وفى ختام القرن الثانى عشر كان الملك النورماندى الشاب غليوم الطيبب يقول للمسلمين فى بلاطه : « فليعبد كل منا الرب الذى يحب . لأن من يؤمن بربه يحقق السلام لفؤاده » ولبست نساء باليرمو من الإفرنج والإيطاليين ملابس المسلمات . كما ألف الملك من العرب ضمن الجيش النورماندى فرقة من المسلمين الفرسان حملة القوس . وفتح الملك جيوم بلاطه للمسلمين الأطباء والمنجمين والشعراء والرحالة – راجع الشاعر والقاضى ابن قلاقس السكندرى . وابن ظافر الأديب الفحل . وشهد الرحالة ابن جبير من بلنسية لپاليرمو بأنها تتقبل المقارنة بمدينة قرطبة .

إيبوليت تين عن الرينسانس

لم أوفق إلى ما كتبه المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى تين الفرنسى عن عصر الإحياء ، وأكتفى مؤقتًا بنقل ما كتبه فى مؤلفه المشهور « تاريخ الأدب الإنجليزى » عن انتقال الرينسانس إلى إنجلترى . وهو تقديم طويل عن عصر هنرى الثامن والملكة « اليزابث » . اخترت منه ما يتعلق بالعصر الفلورنسى .

« ... وبدأت الاكتشافات ، وتحركت الصناعة ، والعلوم ، والفنون فى طريق التجديد: اكتشفت قارة جديدة ظنها مكتشفها الأول ساحل الصين . وعرفت أوربا الطريق البحرى بالطواف حول الطرف الجنوبى لإفريقيا حيث رأس الرجاء الصالح (وأفضل ترجمة الاسم « برأس الأمنية الطيبة ») ومنها واصلوا المسير إلى الشمال الشرقى حتى بلغوا الهند .

وبدأت العلوم التجريبية تنمو كالنبت الصالح . كما اتجه الإصلاح إلى الدين ، ولم تبق ناحية فى الذكاء لم يُنْضِجْها الجهد العام ، وتحرك الإنسان وكأن عيون البشر تفتحت فجأة للرؤية

والمشاهدة ، فتنطلق منهم روح جديدة تشرئب إلى العلا . لم يقف الإنسان عند فحص الأشياء فرادى (بالقطاعى) حسب ترتيبها الاسكولائى ، بل اتجه إلى النظرة الشاملة ، وبلوغ ماوراء الظاهر لفحص محتوياته ولمس أجزائه ، حتى يخرج منها بصورة حية قد يستطيع أن يترجمها بإنجاز فنّى أو بعمل منتج ، أجل ، كان القرن الخامس عشر يقدم العصر العظيم إلى أوربا ، وقد أخصب البشر ، العصر الذى مافتئنا نحيا ونعاون بعصارته فى إثارة جهده وانطلاقه . وعندما تظهر قدرات البشر بهذا الوضوح فإن إحياء نموذج العالم القديم (يونان وروما) يحمل معه عشق الجمال ، ظهر ذلك فى أول أمره بإيطاليا ، فهى أقرب البلاد صلة بالعصر الكلاسيكى ، وانتقل منها إلى فرنسا فأسبانيا ، فالبلاد الواطئة ، فالمانيا وإنجلترا ، كيف حدث هذا ؟ وماهى الثورة التى دارت فى النفوس حتى يجتمع أهل كل تلك البلاد على شئون جديدة ، غابت عنهم منذ انهيار إمبراطورية روما ؟ لابد أن يكون قد حدث تحسن عام شعر به الناس . فالنموذج المثالى هو المعبر عن المقف الحقيقى . والشخصيات التى يستحضرها خيال الكاتب ، مثل كل تصورات المفكر ، تقدم بيانات عن حالة المجتمع ، ودرجة فلاحة ورفاهيته . وهناك توافق وتطابق ثابت بين ما يعجب الإنسان ، وبين الشخص ذاته .

فحوالى ختام القرن الخامس عشر تحرك المجتمع الأوربى ، وراجت صناعة الصوف وتجارته فيما يشبه الفجائية ، حتى بلغ الأمر فى إنجلترا أن حولت أراضى الغلال إلى مروج ومراع للماشية ذات الصوف .

وإذا تمعنا فى حقيقة الأمر نجد أن الملوك فى أوربا جنحوا فجأة إلى السلام : لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وفرديناند وايزابلا فى أسبانيا ، وهنرى الثامن فى إنجلترا ، أما إيطاليا فقد انتهى فيها عصر الإقطاع مبكرًا ، وقامت فيها الجمهوريات والإمارات ، وعندما يستتب السلام تظهر الفنون والصناعات ، وهناء البيوت وأهلها يتتبع الأمن المدنى ، ورب البيت الذى يطمئن إلى حوائج أسرته ، ويشعر بالحماية التى تحوط بلده ، يستقر السكون فى نفسه ، ويحن إلى أرضه ، ويسعد بإصلاحها . وهذا هنرى الثامن يأمر برصف طرقات لوندرة (١٥٣٣) . وقد كانت القذارة والقمامة والحفر ، والوحل والمياه الآسنة تجعل من الطرقات أذى وعذابًا .

ولقرن سابق على ممالك أوربا بدأ الإيطاليون الاهتمام بالآثار القديمة متأثرين بكتابات پلوتارك وبوكاتشيو . وراحوا يبحثون فى فرنسا وألمانيا وبيزنطة عن مخطوطات قدماء اليونان والرومان يدرسونها ويترجمونها ، ويعلقون عليها ، والأقرب إلى فهمهم هو اللاتينية لغة كثرتهم ، وهى ذات لغتهم مُحَوَّرةً تحويرًا بسيطًا . وأخذوا يتأثرون ڤرچيل فى شعره ، وسيسيرون فى نثره . ونشروا على المجتمع مايوصف بحسن المحاضرة ، وإمتاع الروح بكل ماينعمون به ، من رياض غناء فيحاء ، وموسيقى تشرح النفوس . وكان شاعرهم وأميرهم لورنزودى مديتشى فى أشعاره الرعوية يحث على أفراح الدنيا ، « فلا شىء مؤكدًا فى غده » .

ميشليه عن الرينسانس

أعجبت بتفسير المؤرخ الفرنسى الكبير چول ميشليه لمصطلح « الرينسانس » قال : « عودة إلى الحياة » ، مدخل فى باب المعجزات ، إذا قصد بها المخلوق الحى » . وتنبه ميشليه إلى ما يحدث فى الطبيعة ، فقال : « رينسانس » تعنى عودة إلى الحياة فى الطبيعة ، اقتراب الإنسان من الطبيعة ، والمسيحية من الوثنية فى العصر الكلاسيك (يونان وروما) ، وأوربا من آسيا . ومنذ زمن مديد ، عودة أوربا إلى الطبيعة ، لا فى التاريخ ولا فى السياسة فحسب ، بل فى العِلْم (سيانس) .

١ – دراسة مباشرة للطبيعة (فى الكيمياء الأولية وهى « الألِكمى » .

٢ – بالدراسات اللغوية والفلسفية للوثنية : عبادة الطبيعة (نسخ المخطوطات الوثنية) .

٣ – التقريب بين الطبيعة وبين الأمم – وبين الفن والزمان – وبين الطبيعة والزمان ، والفن.

وأرجو ألا يتوقع القارئ منى بعد هذه الترجمة الحرفية ، لتعاريف المؤرخ الكبير ، أن أباشر ترجمة ما قدم به فصوله عن الرينسانس . لأن وضع ميشليه ، وتاريخ حياته وسط صراعه ضد قوى الظلام فى النزاع الأخير بين الرجعية والتقدمية ، دفعه إلى مهاجمة العصر الوسيط بلا هوادة . ولكن المؤرخين ، وخاصة فى زماننا ، متفقون على أن استنكار ذلك العصر ، خروج عن التحقيق السليم . فقد كان للعصر الوسيط إنجازات فكرية وفلسفية ذات قيمة فى ذاتها ، وإنجازات معمارية فى طرازين عظيمين للفن : الطراز « الرومانسكى » (ستيل رومان) والطراز « القوطى » (ستيل جوتيك) . ولكليهما آثار من أعلام فن العمارة . نعم إن ميشليه يتجه نحو الناحية الصحيحة فى الشطر الأول من ذلك العصر ، ولكنه ينتهى بتسفيه نهاياته .

وليتصور القارئ أنه بعد هذا التقديم ، يبدأ فصله الأول بهذا العنوان : « فرنسا فى حكم شارل الثامن تجتاج إيطاليا » ، وله عذره ، فإن مجلدات تاريخه — وهى من أمجاد الثقافة الفرنسية ، وميشليه من أئمة المؤرخين — خاصة بتاريخ فرنسا من مطالعها حتى العصر الحديث . فأنا مكتف بترجمة ملخص لكلامه عن الرينسانس وحده . « لطف كلمة الرينسانس فى أن أصدقاء الجماليات لا يذكرون من ذلك العصر إلا بلوغ فنه المجدد فى حرية رائعة . أما العلامة فيرى فيه استجداد الدراسات الخاصة بحضارتى اليونان والرومان . « ورجل القانون يرى نفاذ الضياء إلى داخل خلطة من

عاداتنا وتقاليدنا العتيقة » .

ثم يتفق فى الاعتراف بعصر « الإحياء » : الشخص المحب للفن ، ورجل الإيمان ، ورجل الشك . وتساؤل مونتيني : « ماذا أعرف ؟ » (Que Gais-je) هو كل ما رآه پاسكال ، ويوسيويه . الجهد الهائل إذن فى ثورة مركبة ، متسعة الأرجاء ، جمة النشاط ، انتهى إلى العدم . إرادة عظيمة تنتهى إلى غير نتيجة . من شأنه تثبيط لهمة الفكر الإنسانى .

فهؤلاء السادة ، أهل المعرفة ، نسوا أمرين صغيرين شكلا ، إنما اختص بهما ذلك العصر من دون كل العصور السالفة ، وهما : اكتشاف الدنيا ، واكتشاف الإنسان .

فالقرن السادس عشر بامتداده ، واتساعه ، يتضمن : كولومبوس ، وكوبر نيقوس ، وجاليليو ، أى من اكتشاف الأرض إلى اكتشاف السماء . لم يكتشف الدنيا فحسب ، بل اكتشف الإنسان . وبينما كان ڤيزاليوس يكشف له عن الحياة ، وكالفان ، ومارتن لوثر ، وكوجاس ، ورابليه ، ومونتيني ، وشكسبير ، وثرفانتس ينفذون إلى أسراره الأخلاقية ، بدأ استقرار الإنسان على العدالة والحكمة .

يقول : ماذا نرى من علم فى العصر الوسيط ؟ لم يكن إلا علم العرب ومعاونيهم اليهود ..

« ولنقل شيئًا تحدثنا عنه بما لا يكفى ، وهو أن الثورة الفرنسية ذاتها ، وجدت الصيغ معدة ، جاهزة بأقلام الفلاسفة » .

« وكان القرن السادس عشر كله إرادة ، والأحفاد فى القرن التاسع عشر أخذوا عنه قوى التجمع ، وعرفوا النبع الثَّر الذى يخضل فيه الجنس البشرى لتقوية الروح . أى نعم !

لقد كان القرن السادس عشر بطلا » ، ودمتم !

كشاف مختصر عن بعض شخصيات
(الرينسانس)

الأريتينو (پيترو) :

أَحَدٌّ لسان فى القرن السادس عشر . وُلد فى أريزّو (١٤٩٢) ، ونفى من جراء قلمه الساخر اللاذع . غادر مسقط رأسه إلى روما ، ودخل فى حماية البابا ليون العاشر . ولكن نشره لأشعاره البذيئة اضطرته إلى التماس الحماية فى بلاط فلورنسا ، وأميرها يوحنا المديتشى . وعقب وفاة الأمير هاجر إلى ڤينسيا ، وفيها ألّف ملهاتين مفلوتتى العيار فى الإباحية ، ولا يمكن إنكار موهبته القلمية ، وبها وبتهديدها عاش هانئًا وناقدًا حصيفًا لفن التصوير ، وكان صديقًا لعظيم مصورى البندقية تسيانو ، توفى الأريتينو سنة ١٥٥٦ .

أرسطو :

كان عصر الرينسانس أفلاطونى النزعات ، وليس معنى هذا أن هيومانيي فلورنسا تجاهلوا أرسطو ، فقد نشرت سنة ١٤٩٢ فى البندقية أهم طبعة لأعمال أرسطو – ولكن التفسير الأرسطى عند ناشريه اتكأ على المسيحية .

الأكاديمية :

مولدها فى عصر « الإحياء » وفى إيطاليا : اجتماع شخصيات بينها علاقات صداقة ، وكذلك اتفاق فى إهتمام أعضائها بمسائل فكرية .. وقد تعددت فى ذلك العصر المتفتح بإيطاليا ، وفى البلاد الأوربية التى وصل تأثير « الرينسانس » إليها بهذا التتابع فرنسا ، أسبانيا ، البلاد الواطئة ، إنجلترا ، ألمانيا .

أول الأكاديميات وأهمها وأشهرها هى أكاديمية فلورنسا برياسة مارسيليو فتشينو ، ففى أواخر القرن الخامس عشر (الكواترو تشينتو عند الإيطاليين) ، حددت هذه الأكاديمية هدفًا موضوعيًّا هو إنشاء تركيب فلسفى يوفق بين المسيحية والأفلاطونية . ويجمع إلى هذا كافة التجارب الدينية . مارسيليو فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) وتلميذه پيكوديلا ميراندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) ذهبا إلى أبعد من نقولا دى كويس القائل بأن « الكتب المقدسة ، والفلسفات أكدت أمرًا واحدًا بتعبيرات مختلفة » ، وعرضا مسائل من زاوية جديدة نتيجة اقتناعهما بأن التجربة الدينية هى جزء من التركيب الإنسانى لإلـه مشترك فى كل الأديان ، وطبيعة فى الإنسان كالفرس يصهل . ومن أقوال فتشينو : « عندما أتحدث عن الدين ، أعنى الغريزة المشتركة ، وهى طبيعية فى أن يجمع الإنسان على وجود عناية إلهية ، هى صاحبة الملك » .

وتحت تأثير پيكو ديلا ميراندولا على أستاذه فى توجيهه إلى الأصول الإغريقية ، والعبرانية والعربية ، يقول : « نستعرض كل

أساتذة الفلسفة ، دون أن نأخذ بمذهب واحد منهم ، بحثًا عن توافق روحى هام تختصر فيه الفلسفات إلى حقيقة نفسية (صوفية) ، وهذا واضح الاستحالة ولا يتعدى رأيًا يقول به مفكر عبقرى .

البيرتى (ليونى باتستا) :

أفلاطونى بارز (توفى ١٤٧٢) وصاحب فلسفة فى فن العمارة ، وفى تنظيم المدن ، وكان إلى هذا موسيقيًّا عَلّامة ، ومصورًا ، ونحّاتًا ، والعمارة أهم نشاط له . لقد طالع وتعمق دراسة كتاب المعمارى الرومانى (ڤتروڤيو) ثم وضع مؤلفه المشهور فى العمارة (طبع بعد وفاته بقليل) . وهو مصمم واجهة كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا ، وقصر روتشلائى بفلورنسا .

إسكندر السادس :

تولى البابوية عام ١٤٩٢ عقب وفاة البابا إنوتشنى الثامن . وُلد فى أسبانيا عام ١٤٣١ ، وتوفى فى روما عام ١٥١٣ ، بعد حياة فاسقة ، وأخلف عددًا كبيرًا من الأطفال أشتهر منهم تشيزارى بورجيا ، وشقيقته لوكريسيا بورجيا ، وهو البابا الذى شلح المصلح الدينى ساڤونارولا ، وسلمه لمحكمة التفتيش (انكيزيسيون) .

الأسلحة :

تطورت قدرات الأسلحة باستخدام البارود ، وصب المدافع ،

وصناعة « القَرابينات » (بنادق قديمة) . وتطورت أبنية الدفاع باستحكامات الحصون .

الاسترولوجيا :

(علم النجوم الأسطورى – والتنجيم ممارسته) :

كان الاهتمام بالنجوم والكواكب فى عصر « الإحياء » ، فكانت الأفلاك سواقة للبشر ، تؤثر فى حياتهم بالخير والشر . وكأنها مخلوقات حية ذات شعور وإدراك . ولكل آدمى فى حساب النجوم صورة من حياته حسب إتفاق ميلاده مع حركة واحد منها . وما فتئت كلمة « المُنَجِّم » تحمل إلى اليوم فى بلادنا هذه الصلة المتصلة : وهى ما تعرف « بالطالع » . وهذا غير « الاستخارة » التى يقوم بها حفظة القرآن الموهوبون يقرءون الطالع فى الآيات .

إيراسموس (زيديريوس) :

وُلد فى روتردام حوالى عام ١٤٦٩ . علامة هيومانى ، تتلمذ على « الفرير » مدى خمس سنوات ، ترهبن عام ١٤٨٨ ، وخلصه البابا چول الثانى من الرهبنة ، ورسمه كاهنًا ، وعينه سكرتيرًا لأسقف كامبراى ، ثم سمح له بمتابعة دراسته فى جامعة باريس . زار إنجلترا لأول مرة عام ١٤٩٩ ، حيث التقى بتوماس مور ، وجون كوليت . والسنوات ١٥٠٠ – ١٥٠٦ قضاها فى باريس ، ثم فى البلاد الواطئة ، فالعودة إلى إنجلترا . ومؤلفة عن « الأمثال والحكم » صدر عام ١٥٠٠ . أمّا كتابه عن « الفارس المتدين » فقد صدر فى

١٥٠٤ ، ومن ١٥٠٦ حتى ١٥٠٩ عاش بإيطاليا فى البندقية وروما ، ودرّس اللغة الإغريقية ، وأعاد طبع أمثاله وحكمه ، وقد ارتفع بعددها من ٥٨٠ فى الطبعة الأولى إلى ٤٢٥١ فى الطبعة الثانية . وغادر إيطاليا إلى إنجلترا ، وفى الطريق ألف كتابه الأشهر (مديح الجنون) = (تقريظ غياب العقل) أتم كتابته فى منزل توماس مور ، وظهر عام ١٥١١ . عاش أكثر أوقاته فى إنجلترا فيما بين ١٥٠٩ و ١٥١٤ ، ودرس بعض الوقت اللغة اليونانية ، واللاهوت بجامعة كمبردج . ويعود إلى القارة عام ١٥١٤ ، وقد تم الصلح بين فرنسا وإنجلترا فاتجه إلى « بازل » (بسويسرا) حيث تعرف على ناشره الجديد (ڤردين) ، ثم عاش أغلب السنوات من ١٥١٦ حتى ١٥٢١ فى موطنه (البلاد الواطئة) ، وعين مستشارًا للملك أسبانيا شارل الأول (مستقبلا : الإمبراطور شارلكان ، أى شارل الخامس) ، وقد بدأ عصر الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت ، فيطلب منه مارتن لوثر أن يظل على الحياد . ويغادر بازل إلى فرايبورج (سويسرا) ، المدينة الكاثوليكية ، حيث يؤلف « السلام فى الكنيسة » ، ويعود إلى بازل ١٥٣٥ ، ويتلقى من البابا بولس الثالث عرضًا بتعيينه كاردينالا ، فيعتذر ويموت ليلة ١١ - ١٢ يولية ١٥٣٦ بعد أن وزع عطاياه على أسرة ناشره ڤردين ، وعلى الفقراء والمرضى .

أوربينو :

بفضل أميرها فيديريكو دا مونتيفلترو تحولت مدينة أوربينو إلى

مكان مرموق فى تاريخ الرينسانس ، إذ كان الأمير واسع الثقافة ، صديقًا وسنادًا للهيومانيين والعلميين . وله صورة بريشة بيتروديلاً فرانشيسكا ، والمدينة مسقط رأس رفائيل فخر للفن والمصورين طرًّا . وبرامانتى المعمارى الكبير ، أهم آثارها قصر الأمير ، عملت فى بنائه كوكبة من المعماريين المشاهير فى إيطاليا . ومن الخارج ، ويعتبر من أجمل أبنية العصر (هو الآن متحف للتصوير والنحت) ، واشتهرت المدينة بفن الخزف ذى المصادر الشرقية (الفايانس والسيراميك) .

البنوك :

فى أوائل القرن الخامس عشر ، وخاصة فى فلورنسا ، كانت البنوك منوعة : بعضها بنوك تسليف بضمانات ، وبفوائد ترتفع إلى ٢٠ ٪ . مما دعا رهبنة الفرنسسكان إلى إنشاء ما يعرف باسم (مون ده پيتيه) « أكمة الرحمة والصلاح » بما سَمّيناه « القرض الحسن » . وبنوك تسليف بضمانة مقصورة على الجواهر والحلى . ولها صلة بالتجارة . تبيع الحلى على أقساط . وبنوك لاستبدال العملة . ومن الواضح أن كل هذه مؤسسات صغيرة ، والأشهر والأهم هى المؤسسات المصرفية الضخمة وأشهرها فى فلورنسا : بنك أسرة المديتشى ، وبنك أسرة الپاردى ، وكان لهذه البنوك مراسلون فى أهم مراكز التجارة والموانى . وهى الأصل فيما هو معروف اليوم فى كل مكان .

بوكاتشيو (چوفانى) :

عن « لاروس الصغير » ، طبعة ١٩٨٢ : كاتب إيطالى ، وُلد فى فلورنسا أو فى تشيرتالدو ؟ (١٣١٣ - ١٣٧٥) ، مؤلف قصائد غزلية من خرافات اليونان أورمزية أو بسيكولوجية .

وهو مؤلف « الديكاميرون » مجموعة قصص كتبها فيما بين (١٣٤٩ - ١٣٥٣) وهى تصور عادات وأخلاق القرن الرابع عشر ، وأسلوبها كان له فضل تثبيت النثر الإيطالى .

وإليك ماجاء فى كتاب المؤرخ المعاصر ديلومو ، الذى أنقل عنه هذه العروض (طبعة ١٩٧٣) : ولد فى باريس (كذا) ١٣١٣ لأب فلورنسى من رجال البنوك . ولأم فرنسية (كذا) . عاش طول حياته فى فلورنسا ، انتقل منها إلى نابولى ليتقرب من الملك الفرنسى الغازى لإيطاليا . عشق بوكاتشيوابنة هذا الملك ، وخلدها فى رواية قصيرة (نوڤيل) باسم Fiammetta ڤيامتا) ، ثم عاد إلى الاستقرار فى بلده فلورنسا ، ألف أشهر كتبه « الديكاميرون » ، وهو مجموعة قصص قصيرة كتبها باللغة الإيطالية ، فهو ، ودانتى وپترارك كانوا أبطال تحويل العامية اللاتينية إلى لغة من أهم لغات العالم بفضل مبتدعيها العظام . وحكايات « الديكاميرون » مليئة بالسخرية والغراميات المكشوفة . وما فتئ هذا الكتاب يُقرأ فى كل بلاد الحضارة ، بلغاتها . وكَتَبَ مؤلفات جادة باللاتينية لا تقوم لها قائمة الآن . وألاحظ « أنا » أن اللغات العامية كافة ، تبسيط للغة

الأصلية ، وكنا فى شباب « المدرسة الحديثة » ندافع بقوة عن اللغة العامية . ولم يحسن منا بلاغة العامية سوى واحد هو المرحوم ، الكاتب القصصى الأصيل ، محمود طاهر لاشين . ولكنه أنف من أن يكتب بها سطرًا واحدًا . فأضاع فرصة العمر ، لو كان استسلم للغة الكلام فى مصر ، وكان فيها بطلا محليًّا . « وبلاغة العامية » مصطلح عجيب لا يفهمه إلا المتمرسون بأدب التونسى وأدب الزجالين فى كل عصر من التاريخ المصرى – العربى .

البورصة

مصدر الاسم : لقب أسرة من مدينة بروج (بلجيكا) واللقب كان « دير بورتسى » ، ومسكن هؤلاء البورتسى فى بروج كان مقامًا فى ميدان يؤمه التجّار الأجانب ، والإيطاليون بخاصة ، وعندما افتتح بعض الإيطاليين مكتبًا تجرى فيه العمليات المعروفة أطلقوا عليه اسم « البورصة » .

البوصلة :

اكتشفها أو اخترعها الصينيون ، ونقلها الملّاحون العرب إلى أوربا ، ومنها إلى بقية العالم وقد طورها الملاحون الإيطاليون العظام .

برامانتى (دوناتود انجلو) :

أعظم المعماريين فى عصر الرينسانس إلى جانب ميكلانجلو . وُلد فى أوربينو (١٤٤٤) وتوفى ١٥١٤ . حقق الروائع المشهورة فى

روما ، وفى لومبارديا . اجتذبه أميرها لودوڤيكو المغربى (المورو) ، وقصد روما عام ١٤٩٩ ، وأصبح معمارىّ البابا چول الثانى الذى أضاف قصر البلڤيدير إلى الڤاتيكان . بدأ برامانتى فى بناء كنيسة سان پيترو الجديدة ، عام ١٥٠٦ وليتمكن من إقامتها حسب تصميمه ، كان عليه أن يتخلص من كنيسة قسطنطين ، أول معتنق للمسيحية من الأباطرة ، فلم يتردد فى هدمها لينشئ البناء الشائق الملاحق لقصر الڤاتيكان : كنيسة هائلة فى أسلوبها الكلاسيكى الصريح فى هندامه المنبسط الأنيق ، وفى قُبتّهِ ، أجمل قباب روما ، وقد درس بدقة تصميمه لها فى قبة البانتيون الذى بناه الإمبراطور أجريپا .

برونليسكى (فيليپو)

ولد فى فلورنسا ١٣٧٧ ، ودرس العمارة الكلاسيكية فى روما ، ويعتبر أكبر معماريى فلورنسا . وهو بانى « بيت المعمودية » (البابتستير) ، من روائع فلورنسا ، وأقام « الدوم » الكنيسة الكبرى : « سانتا ماريا ديل فيورى » ، وهى البناء الذى يتعرف عليه السائح وسط المدينة ، بقبتها البيضاوية وهى من القباب المعدودة فى العالم المسيحى . وهو بانى قصر « پيتى » الذى يعرض نخبة نادرة من التصوير الرينسانسى . توفى ١٤٤٦ .

برونو (چوردانو) :

ولد فى (الكامپانيا) ١٥٤٨ ، وجاء إلى ناپولى ١٥٦٢ وترهب فى دير الدمنيكان ورسم كاهنًا فى ١٥٧٢ ، ثم حصل على الدكتوراه

فى اللاهوت ١٥٧٥ . وعندما اتهم بالهرطقة تحلل من الكهانة وهرب إلى خارج إيطاليا . وعاش متنقلا بين منطقة الساڤوا وچنيف ١٥٧٩ ، حيث توافق مع البروتستانت أتباع كَلْڤَنْ . وحدث خلاف اضطره إلى مغادرة چنيف إلى تولوز ، ثم إلى باريس (١٥٨١ – ١٥٨٣) ، ثم لوندره « وڤيتانبرج » بألمانيا ، حيث اشتغل بتدريس الفلسفة (١٥٨٦ – ١٥٨٨) . وبعد إقامات فى براج وفرانكفورت عاد إلى إيطاليا ، وانتهى إلى البندقية حيث قبض عليه من محكمة التفتيش ونُقل إلى روما حيث أُعيدت محاكمته واستغرقت سنوات انتهت بحكم الإعدام ، فأُحرق حيًّا عام ١٦٠٠ . ألف أكثر من خمسين كتابًا ورسالة ، وثلاث قصائد فلسفية . رفض رفضًا باتًّا التبرئة بنعمة الرب ، فإيمانه كان بالممكنات اللانهائية للإنسان . كان أول العقلانيين فى التاريخ الحديث . ولكنّ آراءه أخرجته من المسيحية . أحرق فى روما بتهم عدة ، ربما كان أشدها إنكاره الرؤيا والوحى ، ومذهب الخطيئة الأولى للإنسان الأول ، وألوهية المسيح .

پَلاديو (أندريا دى پييترو) :

وُلد فى پادوا ١٥٠٨ ، وتوفى فى ڤيشنتزا ١٥٨٠ . كان دارسًا وناشرًا لمجلدات المعمارى الرومانى الكبير ڤتروڤيو ، وغدا من أعظم من أقاموا أبنية دينية ودنيوية ، وبعد وفاة رجال العمارة الكبار . وآثار پلاديو باقية فى بعض المدن الإيطالية وخاصة فيشنتزا وڤنيسيا .

جوتنبرج (يوهانس جنسفلايش) :

« مطبعجي » ألمانى ، ولد فى مايانس (ما بين ١٣٩٤ أو ٩٩ – وتوفى ١٤٦٨) بدأ « جواهرجيًّا » ، ثم صانع مرايا . استقر فى ستراسبورج ١٤٣٤ ، وانتهى فى عام ١٤٤٠ من تحقيق اختراعه فى السر . وأصالته فى أنه صب الحروف منفصلة (تيبوجرافيا) ، وكان الصينيون قد تصوروها منذ القرن الحادى عشر . وقد استغرق عمله حتى اكتمل فى صورته النهائية نحو عشر سنين (١٤٣٨ – ١٤٤٨) ، تكلف أموالا لجأ فيها إلى المدعو يوحنا فوست من مايانس منذ عام ١٤٥٠ . وقد طبع الكتاب المقدس المعروف « بالكتاب ذى الاثنين والأربعين سطرًا » ويبدو أنه كان أول كتاب طبع بالطريقة المستعملة إلى اليوم .

ورفع يوحنا فوست عليه قضية يطالب بفوائد ديونه التى تأخر جوتنبرج فى سدادها . وخسر المخترع القضية ، وفقد أدواته ومطبوعاته . وأخذ أحد معاونيه مكانه . وهو المدعو بطرس شيفر . وطبع أول نسخة للمزامير تعرف « بمزامير مايانس » . وعاش المخترع العظيم فى محنة ، حتى أنقذه وعنى بأمره وشرفه رئيس أساقفة ما يانس « إدولف فون نساو » .

جيبرتى (لورنزو) :

شهرته الكبرى فى الباب البرونزى لمعمودية فلورنسا « البايْتِسْتِر » ،

وقد ملأه بتصاوير وقائع وشخصيات « العهد القديم » فى تربيعات تملأ الضلفتين ، وكانت من نوع النحت البارز (باريلييف) ولد عام ١٣٧٨ وتوفى ١٤٥٥ . ولقد عمل جيبرتى فى « سانتا ماريا ديل فيورى » وفى « أورسان ميكيلى » ، وأحواض المعمودية بمدينة سيينا .

دورير (ألبرخت) :

من مواليد نورمبرج عام ١٤٧١ وتوفى ١٥٣٨ . عمل فى كولمار بمرسم شونجاور ثم فى ستراسبورج ومنها إلى إيطاليا حيث تعرف على الموضوعات المتصلة بالعصر الكلاسيكى ، وتأثر بصور النساء العاريات فى فن مانتينيا وبولايولو ، ويعتبر أول فنان جرمانى درس الفن الإيطالى فى صدق . « فنه جهد صامت ، وعزيمة جادة فى تحقيق وضوح الشكل ، وتوافقه مع مصورى الجنوب » . وصفه إيلى فور : « فنانٌ علامة متفتح الانتباه لكل شىء . فيه من العصر الوسيط : الإيمان والرمزية ذات الثراء فى تحقيقها ، وأخذ عن الرينسانس القلق والقدرة على بيان المناظر اللانهائية ، التى تظهر للعقول فى تخفيها . والإرادة التى لا تهدأ لتحقيق المعرفة . كان رسامًا أهم منه مصورًا . أثرَى فن الحفر بموضوعات ذات معانٍ عميقة (المجموعة العظيمة بمتحف الألبرتينا ، فى ڤيينا) ولكن هذا لا يغمطه حق قدراته فى التصوير بالزيت ، فهو مقتدر فى الفنَّيْن . ولم يك فن الحفر – بهذا المستوى – معروفًا قبل عصر الرينسانس . بدأ حفره بادئ ذى بدء فى الخشب ، ثم تحول إلى نقش النحاس ، ذلك الفن المتطلّب صبرًا وتمهلا ، وكان « دورير » من أوائل القائمين به ، أظهر

فيه أروع إنجازاته . وكان إلى كل ذلك مهندسًا حربيًا ، ألّف كتابًا فى التحصينات ، وأتمّ كتابه عن النسب فى الجسم الإنسانى ، عام وفاته ١٥٢٨ » .

هِرْمِس « مثلث العظمة » (Trismagiste)

منذ أن تعرف هيرودوت على أن « توت » (أو « طت ») إله المصريين القدامى ، هو هرمس الإغريقى ، وهو يزعم أن كهنة مصر يحتفظون بأسرار ربهم وبقداسته . ولكن أفلاطون فى « فيدرا » وفى « فيلاب » تحدث عن « توت » أو « طت » مخترع حروف الهجاء والكتابة .

وعنى السكندريون فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد بأفلاطون من جديد ، وبحثوا عن وسائل تحقيق ما سموه بالكتب « الهرمسية » ، وأنها حاوية لمذاهب أو أفكار متفقة مع أفكارهم ، مثلما فعل الفيثاغورثيون : عزوا مؤلفاتهم هم إلى فيثاغورث أو إلى تلاميذه المباشرين .

الهيومانية :

كلمة « هيومانيتاس » عند سيسرون وكانتليان تعنى الثقافة الروحية أو تثقيف الروح وآداب الطباع . فإذا أخذنا بالأعم يكون المعنى هو الحضارة .

وعندما تنبه مثقفو الإيطاليين منذ بترارك إلى عظماء الكتّاب

والشعراء فى العصر القديم كانت تحدوهم الرغبة إلى استعادة القيم الثقافية التى كانت موضع تقدير أولئك الكتّاب والشعراء . ولكن هذه الاستعادة تتطلب البحث عن المخطوطات وتنقيتها من الأخطاء ، مع التصويب اللغوى ، وكذا دراسة اللغات القديمة الضائعة كاليونانية والعبرية . وبعض الهيومانيين كانوا على الأغلب فصحاء ، تعنيهم قواعد النحو . ولكن حقائق الجدد ، المطالبين بما عند القدماء تتطلب تنظيمًا بين أفكار القدماء وأفكار هؤلاء المحدثين ، بمعنى البحث عن توافق بين الإنجيل والتوراة ، وبين حكمة أفلاطون بعد العثور عليه ، وبلاغة سيسيرون . والتوفيق بين صرامة التقشف المسيحى ، وأبيقورية القدماء أو رواقيتهم . **والجهد فى هذا التركيب المزدوج يمثل عصر الرينسانس** : من لورنزوڤالا الإيطالى إلى ميشيل ده مونتينى الفرنسى ، وكان الهيومانزم الإيطالى أكثر وثنية من غير الإيطاليين . ولكنه انتهى بمارسيلى فتشينو ، وتوماس موروابراسم إلى محاولة غير كاملة النجاح بالدمغ والتكامل بين المسيحية وعشق الحياة الدنيا والجمال ، وهى التى تتمثل – إلى أقصاها – فى ثقافة اليونان والرومان .

الحديد :

اتسع دور الحديد فى إبّان عصر الرينسانس ، وارتفعت أفرانه لصنع الحديد الزهر ، حيث استُعمل كثيرًا فى صب المدافع .

الطوائف :

جماعات صُنّاع يدويين أو تجار ، كل منها مختص بحرفة تجرى فى مكان مقرر . وتتألف الجماعة من « أسطوات » ورفقاء وصبية ، وكلهم مُتّفِقُون على اتباع قواعد الطائفة فى احترام سلطات « الأسطوات » ، أو الحكام ، وقد ازداد عدد هذه الطوائف فى عصر الرينسانس ، اشتد فيها النظام الاقتصادى ، ونمت فيها حياة الصناعة ، ولكنها فقدت سيطرتها السياسية ، وأصبحت واحدة من وسائل الحكم المطلق ، وكانت النتيجة إيقاف التقدم الصناعى .

اليهود :

اضطهاد اليهود فى أوربا لم يكن ظاهرة مستمرة ، فهى تقوم ، وتظهر وتغيب حسب موازين الحوادث . وبدأت مثلا فى عصر الصليبية الأولى ، وعادت بقسوة فى سنوات وباء الطاعون الأسود . وكانت كل هذه المظاهر أكثر حدوثًا فى فرنسا وألمانيا ، وأقل بكثير فى إيطاليا ، بل كان هذا البلد الكريم ملجأً لهم ، وخاصة بعد طردهم من أسبانيا الكاثوليكية (١٤٩٢) . ولأنهم بالحق كانوا يتمتعون بحماية البابوات . وهذه إحدى الشهادات الطيبة لهؤلاء الرؤساء الدينيين العظام . وإليك بعض أسمائهم : مارتينو الخامس ، أوجين الرابع ، بيوس الثانى ، يوليو الثانى ، ليون العاشر ، بولس الثالث ، يوليو الثالث ، سكْسْت – كانت (أى الخامس) . كان أطباء كل هؤلاء البابوات من اليهود . والثقافة العبرية التى كانت مُجَهّلة فى

العصر الوسيط ، تحولت فى القرن الخامس عشر إلى عنصر هام فى الهيومانية . هذا إلى أن اليهود المتأصلين فى التسليف بالضمان أدوا دورًا اقتصاديًّا هامًّا . فحوالى عام ١٦٠٠ كانت البنوك ومكاتب التسليف اليهودية تبلغ ٥٠٠ ، والمتعاملون اليهود فى التجارة ما بين الشرق والغرب كانت أكثر قواعدهم فى ڤنيسيا ، وفيرارا ، وانكونا ، والقسطنطينية ، وكانوا فى هذه سبعين تاجرًا ونيفًا . ومع كل هذا لم تلعب أية أسرة فى غرب أوربا من اليهود دورًا اقتصاديًّا يقارن بما قامت به أسرة المديتشى فى إيطاليا ، وأسرة الفوجر Fugger فى ألمانيا ، ثم جاء إنشاء « أكيات التقوى » (مون دى پيتيه) أو « القرض الحسن » ، من منتصف القرن الخامس عشر منافسًا لمكاتب التسليف اليهودية ، وازداد هذا بتقادم الزمن ، وبدأ التدهور الاقتصادى للإسرائيليين يشتد بتنظيم ما عرف فى الشرق باسم « حارة اليهود » . والكلمة المستعملة فى اللغات الأوربية هى « جِتّو » فى روما ، وبولونيا ، وأنكونا وغيرها ، استجابة لمكتوب بابوى سنة ١٥٥ .

كويس (نقولادى) :

ولد فى بلدة « كويس » التابعة لمنطقة « تريف » بألمانيا . حصل على الدكتوراه فى القانون الكنسى من جامعة پادوا ، ورسم قسًّا ، وشارك فى المجمع الدينى بمدينة بازل (سويسرا) . حاول إقامة إتحاد للكنائس اليونانية واللاتينية ، ثم عين قاصدًا رسوليًّا للبابا فى ألمانيا ورقى كردينالا ، ووضع نظامًا للكنائس الألمانية ، ثم استدعاه البابا

إلى روما وعينه حاكمًا لها . وتوفى سنة ١٤٦٤ . وهو أول الهيومانيين الجرمان باتساع معارفه العالمية . وحاول المصالحة بين الكنيسة اليونانية وأتباع « هوس » فى بلاد التشيك ، مع روما . كان فيلسوفًا وعلامة مجددًا ، وله أفضال على كوبرنيقوس وجاليليو . وكان أول من قال بأصالة الرياضيات فى الفيزيقا . وكتابه "De docta igniorantia" « سنة ١٤٤٠ يُعَدُّ من أعلام المؤلفات فى عصر « الإحياء » .

القَبَلانية أو القَبَّالَة (تعنى فى العبرية : ما يقبل ، أو يستلم) :

حقيقتها تعنى تفسير بعض إصحاحات « العهد القديم » بطريقة خفية باطنية . وهذه الأسفار كان لا يعرف بها سوى « القبلانيين » وهم الذين يفسرون هذه الكتب فى معنى توجيهات الرب « ياهوڤا » إلى عباده . ويبدو أن فى « القبالة » نوعًا من « الثيوزوفية » التى عرف بها من قبل بعض المشاهير ، مثل فيلون السكندرى ، وابن سينا ، وباراسلس . وقد انتشرت فى العصر الوسيط ، وخاصة فى أوساط يهود الأندلس . ولكنها هبطت عند مجموعات أقل إدراكًا ، وعلمًا ، إلى ضروب من السحر الذى يمارسه العوام .

كاستليونى (بالداسارى) :

مؤلف كتاب « رجل البلاط » (الكورتچيانو) ولد فى « مانتواء ١٤٧٨ ، وعاش فى بلاط « أوربينو » وكان صديقًا لرافابيل فى روما ، وعضوًا فى جماعة الهيومانيين حول البابا ليون العاشر . وبعد وفاة زوجته ١٥٢٠ ترهبن ، وعُين قاصدًا رسوليًا لكليمان السابع ،

توفى بطليطلة ١٥٢٩ فى العام التالى لِنَشْر كتابه الذى طبع عصره إذ كان المؤدب لأبناء الأعيان . ونَشَرَ فى إيطاليا والغرب الأوربى القيم الحضارية : التربية والتعليم ، والآداب الاجتماعية . وزاد من احترام المرأة ، وكان معتنقًا الأفلاطونية الجديدة ، ورجلا كاملا ، وجنديًّا لا معًا ، ودبلوماسيًّا ، وفنانًا .

كليمان السابع (يوليودى مديتشى) :

وُلد فى فلورنسا ١٤٧٨ وانتخب بابا (١٥٢٣ - ١٥٣٤) وكان حليفًا لفرانسو الأول ، الملك الذى اهتم بحركة الرينسانس فأدخلها وأذاعها فى فرنسا . صداقته لفرانسوا جلبت عليه عداء الإمبراطور شار لكان الذى عاقبه باجتياح روما (١٥٢٧) ، فخربها وأخذ البابا أسيرًا . وفى عام ١٥٣٣ رفض طلاق ملك إنجلترا هنرى الثامن من عقيلته كاترين داراجون . فأثار ثورة الملك على الكاثوليكية ، وكان ذلك بدء تحول إنجلترا إلى البروتستانتية .

الكوليدج :

كان استمرار الكولدجات فى عصر الإحياء ، وإن فاقت معاهد العصر الوسيط فى تحولات بالغة ، أهمها - تبعًا لطبيعة العصر الجديد - أنها تحولت من معاهد دينية إلى كليات فنية (بمعنى هيومانى) فازدحمت بالطلبة مما جعل هيئات التدريس تتخذ أوضاعًا جديدة ، مع إدراك عميق لدورهم كتربويين .

الكيمياء :

كانت على الأغلب (ألْكيمى) تبحث عن وسيلة لتحويل المعادن البخسة إلى ذهب ، تأسيسًا على النظرية القديمة فى العناصر الأربعة ، أو ما كان يعرف بمبادئ « باراسلز » الخمسة وبقيت على حالها مختصة بالكيفية أو النوعية . غير أن « باراسلز » اتكأ على التجارب واستخدم أدوية تداخلت فيها المعادن .

الكوكانْى :

اصطلاح معروف عن مكان خيالى : هبة للفقراء ، يُطعَمون منها حتى الشبع مثل تنابلة السلطان .

الكومندا :

شركة أعمال ظهرت فى إيطاليا من القرن الثانى عشر . وعقود الكومندا تتألف من « الكومنتارى » الذى يقدم المال ، والتاجر الجوال بعقد لرحلة واحدة . وفى بعض الأحيان يكون التاجر صاحب سفينة ، فهو الذى يقدم المال .

كوبرنيقوس (نقولا) :

ولد فى بلدة « تورون » ببولندة (١٤٧٣) ابن تاجر ثرى . درس أولا فى كراكوفيا (١٤٧٦) وكانت أول مدينة أوربية ، هى ومدينة بولونيا بإيطاليا ، تدرس فيها الرياضيات (التى بدأت فى كراكوفيا

١٤٧٦) . وانتقل إلى بولونيا واستقر فيها ثلاث سنين ، قام بعدها لتدريس الرياضيات فى روما ثم حصل على الدكتوراه فى القانون من مدينة فيرارا ، وتابع الدراسة الطبية فى ذلك الوقت (١٥٠٤) وعاد إلى بولندة حين اجتمعت لديه عناصر نظام الفلك ، وصبر حتى عام ١٥٤٣ – سنة وفاته – لينشر مؤلفه عن قبة السماء ، إهداء إلى البابا بولس الثالث .

الكتب الهرمسية :

الكلمة تعنى لغويًّا : شيئًا مقفلا بطريقة كاملة ، أو شيئًا صعب الفهم والوصول إلى معانية الخفية . ومعنى الوجه الهرماتيك أى الذى لا يفصح عن شيء ، وهرمس اسم علم يوصف بالـ (Trasmegiste أى العظمة المثلثة) وهو الاسم الإغريقى للإله المصرى « توت » . والكتب الهرمسية تؤرخ فى القرن الثالث الميلادى فيما يطلق على مذكرات كتبت من محاضرات أو ندوات سكندرية ، وهى تعبر عن أفلاطونية ممزوجه بالرواقية ، وكأنها تريد الإيضاح عن مذهب تحول به « هرمس » الآدمى إلى إله ، وتصنع ذلك فى عباده الخلصاء . « والكتب الهرمسية » تعنى شيئًا من هذا فى الفلسفة . ثم أضيفت إليها كتب الأسحار « جمع سحر » « وفلك التنجيم » والإلكيمى » ويبدو أن الرينسانس اهتم بها . كما اهتم بالسحر والتنجيم (الإسترولوجيا) . وقد امتدح فشينو وبيكوديلاميراندولا السحر مقاومًا به السحر الشيطانى المرفوض ، وفيها الدلالة على أن الكون وحدة حية ، والإنسان فيها

« ميكروكوزم » . والعجيب أن كل ذلك فتح الطريق أمام ديكارت ، واكتشف حل المعادلة من الدرجة الثالثة .

ليوناردو دافنشي :

فنشي مسقط رأس ليوناردو ، بلدة على مقربة من فلورنسا .. وُلد عام ١٤٥٢ وتوفى ١٥١٩ ، كان ابنًا غير شرعى لمسجل عقود ، تتلمذ على ڤيروكيو . ومن صوره « البشارة » (وموكب الملوك الماچ (السحرة) يمجدون المسيح الطفل) . تمّ هذا فى فترة وجوده بفلورنسا . أما السنوات من ١٤٨٢ حتى ١٤٩٩ ، فهى حقبة حياته فى ميلانو . وفيها صور « العذراء والمسيح الطفل وسط الصخور » و « العشاء الأخير » أو « الربانى » وعندما سقطت دوقية ميلانو ، عاد إلى فلورنسا ، وحقق « الچوكندا » وصورتين « للمادونّا » (سيدتنا مريم) وباكوص « إله الخمر عند قدماء اليونان » و « ليدا » التى عشقها زوس كبير الأرباب فدخل عليها فى صورة « بجع » (تم) . ثم يعود لفترة قصيرة إلى ميلانو ويغادرها إلى روما ، حيث قضى سنتين ، ثم سافر إلى باريس ١٥١٥ ، وتوفى هناك بعد إقامة أربع سنوات . وهو مبتدع « الأسْفِيومَاتو » فى خلط الألوان ، والعارف بتفاصيل التشريح فى الإنسان ، ومهندس ورسام بالقلم والريشة . وفيلسوف ، وله كتاب عام عن التصوير (نشر ١٦٥١) .

لورنتسو الأفخم :

هو لوران المديتشى المولود بفلورنسا ١٤٤٩ ، والمتوفى فى

ضاحيتهما كاريجي ١٤٩٢ . تولى الإمارة بعد وفاة أبيه ١٤٦٩ وتمرس بالحكم شابًّا غير موفق ، ولكنه منذ سقوط المتآمرين (الپاتسى) ١٤٧٨ ، كان قد نضج إلى درجة أنه قدر على مقاومة البابا سكستوس الرابع ، كما نجح فى التضامن مع ملك ناپولى ، ويعتبر نموذج العقلاء فى السياسة الإيطالية ، خاصة فى توفيقه إلى بلوغ السلام . كان لوران شاعرًا وحامى أصحاب القلم . كُتَّابًا وشعراء ، كما كان حاميًا للفنون وأهل الفن والفلسفة .

مازاتشيو (توماذودى سرچوڤانّى) :

مصور عبقرى ، وُلد فى سان چوڤانى بوادى الأرنو (إقليم أريزو) ١٤٠١ ، توفى فى روما ١٤٢٨ . لم يتأثر بالمصورين ، وإنما بالنحّاتين : جيبرتى ودوناتلّو ، وخاصة « ياكوبوديلا كوارتشيا » . عمل فى روما ، وفى فلورنسا ، ولم تبق من أعماله إلا تسع فريسكات و ١٠ لوحات فى عمره القصير . وكان أثره فى الفن واضحًا منتشرًا . ولست أنسى تكرار زيارتى لكنيسة سانتا ماريا دل كارمينا لأتمتع بمجموعة فريسكاته .

المجامع (الكونسيل) :

عاش الشعب المسيحى بأوربا الغربية والوسطى من القرن الرابع عشر حتَى منتصف السادس عشر . على أمل انعقاد مجمع كونى (أومسكونى) لتنظيم الكنيسة التى سارت على غير هدى وإن كانت على أبواب تطور ، فتعلقت الآمال بهذه الفكرة حتى بعد إخفاق

مجمع «كونستانس» . وكان من رأى المصلح سافونا رولا عقد مجمع عام . ووصل الحال بلويس الثانى عشر فى خلافه مع البابا يوليو الثانى إلى محاولة الحكم على البابا الشرس بواسطة مجمع يعقد فى بيزا (١٥١١ - ١٥١٢) فلم يحضره غير إكليروس يحابى فرنسا - وواجه البابا الموقف بعقد المجمع الخامس بقصر « اللاتران » ولم ينته إلا عام ١٥١٧ ، فى حكم البابا ليون العاشر . وكان الكثير من قراراته يتعلق بوضع حد لمساوئ الكنيسة . وهذا المجمع هو الذى انتقل بقراراته فيما بعد إلى مجمع ترنتينو ، أشهر كل هذه المجامع .

فى الوقت الذى قام مارتن لوثر فى ڤيتنبرج ، وبحضور رجل قانون ، مسجل عقود ، ليعلن على الملأ عام ١٥١٨ « استدعاء مجمع مسكونى حر لا يعقده البابا ، بل يكون عقده بأمر من الإمبراطور . وإذا استعمل البابا سلطته ليمنع قيام المجمع الحر ، أو عارض فى إصلاح الكنيسة ، فإن من واجبنا ألا نلتفت لا إلى شخصه ولا إلى سلطته » .

وفى هذا الذى يقترحه ليجتمع فى ألمانيا ، أن يكون لرجال الدين وحتى لغيرهم حق التصويت . ولن تؤخذ سوى قرارات متفقة مع نصوص الكتاب المقدس . ولم يقدر لهذا المجمع أن يعقد أبدًا . ومات المصلح مارتن لوثر وهو يسطر رسالة هجاء عنيف ضد البابوية « **المنشأة فى روما بواسطة الشيطان** » . أما المجمع البابوى الذى بدأ انعقاده فى مدينة ترنتينو ، فى عام ١٥٥٢ حضره مندوب جرمانيا البروتستنتية ، ولكن الانفصال بين الكاثوليك والبروتستانت كان قد

تم . وعلى الرغم من نشاط أعضاء مجمع ترنتينو (١٥٤٥ - ١٥٦٣) وسعيهم بكل شجاعة لإعادة بناء الكنيسة الكاثوليكية ، لم يكن ممكنًا تجنب الوقوع فى معاداة البروتستانتية .

ميكلانجلو (بونارّوتى) :

نحّات ، مصور ، معمارى ، شاعر ، ولد ببلدة كابريز من أعمال توسكانيا سنة ١٤٧٥ . وكانت حياته فى فلورنسا معادلة لامتداد حياته فى روما حيث توفى سنة ١٥٦٤ . كانت الوحشة متغلبة على طبعة فى صورة الانفراد والوحدة .

وفى هذا وصفه رفائيل بأنه يعيش منفردًا كالجلاد . والفريسكو الذى يمثل عذاب يوم القيامة ، فى المصلى الخاصة بالبابا : « الكايلامستينا » قرر ثلاث باباوات متتابعين تدميره بسبب عرى المعذبين . وكل ناقد يفلسف انطباعه ، فمنهم من يقول : هذا النحّات الذى احتقر التصوير - فيما عدا الالافريسكا - ويعتبر التصوير عبث أطفال ، لا يليق برجل . وكان فى فريسكاته نحاتًا بأقوى وأشهر مايكون ، حتى فى مباشرة النحت ، وفى كل مرة يمسك بالإزميل يقع فريسة لمعرفته الكاملة بتشريح العضلات . وهى ظاهرة لا تفوت على من يشاهد تماثيله عن قرب . والعجيب أنه - على كثرة ما ترك من أعمال النحت - لم يكمل منها إلا القليل . فى حين استطاع أن يتم كل فريسكاته على سقف « السستينا » وعلى حيطانها . فأكمل أعظم عمل زخرفى فى العالم . « لأن العلم والمعرفة يخدمانه . فهو قادر

على أن يستخرج من الجدران أى كتل يشاء تصويرها ، وبالحجم الذى يقصد ، كما أمكنه أن يخرج منها ما يشاء من إضاءة أو إظلام » . (إيلى فور) « فهو فى « السستينا » بلغ قمّة الفن الكلاسيكى وتصويره تملك وساد فى عصر الباروك ، سابقًا فى ذلك أهله ، بما تنبض به حركة المعذبين فى الجحيم » (شاستل) .

أشهر أعماله : تماثيل « البييتا » تمثل حنان الأم وحزنها على ما أصاب المسيح . وقد نحت أكثر من « البييتا » المشهورة فى كنيسة القديس بطرس . ثم تمثال « داڤيد » (النبى داود) فى فلورنسا ، وتمثال « النبى موسى » فى واحدة من كنائس روما وتماثيله فى مقبرة المديتشى .

الموسيقى :

بلغ الفن الموسيقى أشده ، وضاعف من قدراته فى الرينسانس . حين ذاك خطت الموسيقى فى طريق لم يسبق حدوثه فى أية حضارة سالفة . فأصبحت فن تنظيم النغمات وتوفيقها ، وهى تتألف من خطوط لحنية تؤدَّى معًا بما فيها من كونترابظ وهارمونيا . ويوصف كل هذا إلى اليوم بالموسيقى البوليفونية ، أى متعددة الخطوط اللحنية .

وأكثرهم إيطاليون ، وفلمنكيون : يوهانس أوكجيم ، وجيوم ماشو وچوسكان ده پريه . وفى الموسيقى الدينية رولان ده لا سوس وفى أسبانيا : توماس لويس دى ڤكتوريا .

والأهم إبداع فن موسيقى جديد ، تشارك فى أدائه الآلات المختلفة تعزف معًا من وترية ونحاسية وطبل ، وأوبوا ، وفلاوتات ، كما يشارك هذا الأوركسترا الجديدة فى سناد قصة تمثل على المسرح بالغناء الفردى والكورالى . وعندما لا يتحمل بعض الكلام العادى فى نص القصة أن يغنى ، اخترع له نوع من التلاوة المنغمة تعرف بالريشيتاتيڤو ، وقد بدأ بها التحول من البوليفونية إلى الميلوديا ، تصاحبها الآلات هارمونيا . تم ذلك فى خواتيم القرن السادس عشر ، والأغلب فى تاريخ الأوبرا أنها بدأت من عام ١٦٠٠ ومن عظمائها مونتڤيردى .

المستيزم (وهو التصوف عند المسيحيين) :

بدأ ظهوره مع القرن الرابع عشر ، وواصل تقدمه فى فردية المتصوفة ومن عظمائها فى الرينسانس ميترايكارت ، وچان داڤيلا ، وسانتا تريزا ده لاكروا ومارتين لوثر .

الملاحة :

رحلات الاستكشاف التى أثارها عصر الإحياء ، لا يمكن تصور قدراتها إلا بتطوير عمارة السفن ويصاحبها أو يتبعها رسم الخرائط ، واختراع الآلات المساعدة على الملاحة الاقيانوسية . بحيث يتمكن الملاحون من تحديد مكانهم ، بتحديد خطوط الطول والعرض . دون أن ننسى أهمية آلات تحديد سرعة مسير السفن .

المسرح :

كان الرينسانس العصر الذهبي للمسرح فى أوربا . والمقصود هنا هو المسرح بمعناه الحاضر عند كل الشعوب المتمدنة . فالمسرح فى العصور الوسطى كان ظاهرة دينية وترفيهية . وهنا أصور تجربتى نتيجة لحضورى بمهرجان سالزبورج مرتين : الأول فى شبابى ، والثانية فى كهولتى .

أنت فى هذه المدينة التى باركها عبقرى الموسيقى ڤولفجانج أماديوس موزار ، تشاهد وتسمع أنواع الإنتاج المسرحى فى مختاراته ، وتسمع الموسيقى الدينية فى الكنائس والموسيقى السمفونية فى قاعاتها ، والغناء المسرحي باصطحاب الأوركسترا فى الأوبرا .

ولكن سالزبورج فى كل مهرجاناتها منذ مطلعها فى عشرينات هذا القرن تحرص دائمًا على عرض مسرحية واحدة (وهذا تجاوزٌ أن نسميها بهذه الصفة) يتم إخراجها عامًا تلو عام دون تغيير فى نصها . عنوانها بالألمانية « ييديرمان » « إيڤريمان » بالإنجليزية وهى حوار ومُسَاجلات أخلاقية عميقة فى معناها الدينى ، مع البساطة الساذجة . تقدم فى مدرج مكشوف يلاصق أبواب كنيسة ، وفيها معنى التجرد كمخلوق من مخلوقات الرب ، ذات أثر عجيب على المشاهد ، أيًّا كانت ديانته .

وهذه الناحية فى سالزبورج تمثل العصر الوسيط فى أروع بيان .

وهى تابعة لما يعرف بالإنجليزية « ميراكل بليز » أو « مورااليتى بليز » .

ومسرح الرينسانس ، أصوله المسرح الكلاسيكى الإغريقى ، ونتاجه فى المسرح الرومانتيكى والرمزى والمعاصر . وهو ظاهرة اجتماعية فنية فى كل زمان ، وتصوره فى عصر الإحياء يعنى ما جرى عليه حين ذاك من تطور هو الذى يعيش فيه الآن . حدث هذا فى القرن الخامس عشر . وقد تحول من عملية أخلاقية دينية إلى علمانية مؤكدة . فالهزل يختص بذاته مثل المآسى ، والممثلون يتحولون من هواية إلى حرفة فنية متخصصة لعب فيها المؤلف الدور الأكبر ، والمخرجون والممثلون دور التنفيذ وفى الكوميديا تظهر التمثيليات . بطلاها « بوليشينل » (بلياتشو) « وبنطلون » وتعرف باسم « كوميديا ديلارتى » وهى صفة تَبقَّى منها أثر حتى عند المسرحى العظيم موليير . وفى إنجلترا وأسبانيا تحتفظ بصفاتها القومية . وشكسبير هو الأعظم فى هذا المجال مرآة لعصره تاريخيًّا ومأسويًّا وكوميديًّا ، وقد انتقل المسرح من الفندق والمقهى إلى بناء متخصص ، ولم يعد مجرد تمثيل لغاية ترفيهية ، ففيها التطهير بمعناه الأرفع ، وتتطلب ميزانية أغنى ، وليست بحاجة إلى أمير أو ملك أو ثرى « ميسين » . والعجيب أنها تحولت فى مصر تحولا طبيعيًّا من أحمد الفار وأمثاله إلى الشيخ سلامة حجازى – مسرح غنائى – وجورج أبيض – مسرح درامى . وحين حاول أبيض تقديم مسرحية مصرية عصرية وظهر بردنجوت الباشا ، والمرأة فى لباس مغنية أو راقصة يعشقها الباشا المحترم ، كان أبيض مضحكًا فى جده ، لأننا لم نستطع أن نتقبل هذا التحول من رجل

فى صورة أوديب الملك ، أو لويس الحادى عشر أو الممثل « كين » إلى باشا مصرى فى مطالع القرن ، علمًا بأن جورج أبيض كان ممثلا تراجيديًا من الطبقة الأولى ، على المستوى الأوربى .

العثمانيون :

عقب سقوط إمبراطورية الأتراك السلجوقيين ، التى نشأت فى الأناضول الأوسط (١٣٠٢) بدأت ما يعرف « بسلطنة الروم » على يد عثمان الأول (١٢٨١ – ١٣٢٦) وعرفت الإمبراطورية باسمه . وهو الذى حقق فتح البلقان (١٣٥٢ – ١٤٥٣) وامتلك سليمان الأول غاليبولى (١٣٥٤) .

تصحيح هذه التواريخ : حوالى ١٢٩٩ تحرر عثمان من السلجوقيين (١٣٢٦ – ١٣٥٩) . حكم أورخان الذى فتح بروصة (١٣٢٦) وجعلها العاصمة وامتلك نقيا وغاليبولى (١٣٥٩ – ١٣٨٩) مراد الأول فتح أدرنة ثم تراقيا ومقدونيا وبلغاريا . وأول من عرف « بالسلطان » ووضع الأساس الإدارى للعثمانية (١٣٨٩ – ١٤٠٣) ، بايزيد الأول قهر الصليبيين فى نقوبوليس (١٣٩٦) (مدينة بلغارية على الدانوب) . (١٣٩٦) انتصاره على المجريين بقيادة سجسموند والفرنسيين : (١٤٠٢) تيمورلنك يقضى على إمبراطورية الأناضول (١٤١٣ – ١٤٢١) ويستردها السلطان محمد الأول (١٤٢١ – ١٤٥١) ثم يعود إلى غزو أوربا (١٤٥١ – ١٤٨١) . محمد الثانى (الفاتح) يهزم بيزنطة ويحتل عاصمتها

ويسميها أسطنبول ، ويحتل الصرب والبوسنيا وألبانيا وشبه جزيرة القرم إلخ (١٥١٢ – ١٥٢٠) . سليم الأول : يفتح الأناضول الشرقى (١٥١٤) وسوريا (١٥١٦) ومصر (١٥١٧) . (١٥٢٠ – ١٥٦٦) . قمة مجد الإمبراطورية فى سلطنة سليمان القانونى . يحتل « موهاكس » مدينة مجرية على الدانوب (١٥٢٦) – يغزو شمال إفريقيا – ويحاصر فيينا (١٥٢٩) – (١٥٦٦ – ١٧٠٣) اثنا عشر سلطاناً ضعيفاً (١٦٩٩) معاهدة كارلوفتز أول تراجع للعثمانيين . وفقد المجر .

فلورنسا (عاصمة إقليم توسكانيا) :

قدر عدد سكانها قبل « الطاعون الأسود » بعشرة ومائة ألف . وبعد زواله بخمسين وستة وستين ألفاً عام ١٦٢٢ . وعلى الرغم من هذا التناقص فإنها العاصمة الفكرية والفنية للرينسانس فى مطالعه ، والمركز الأول لحركة البنوك بأوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والهيومانية فيها تتلون بكبرياء فى أوائل القرن الخامس عشر (عند الإيطاليين يسمى القرن برقمه فهو « الكواتر وتشنتو ») . ثم تتحول الهيومانية إلى عصر فلسفى منسجم مع فيتشنو (مارسيلى) . وعندما غادر المديتشى فلورنسا سنة ١٤٣٤ لم تعد الجمهورية إلى الحياة فيما بين السنوات ١٤٩٤ حتى ١٥١٢ ، ومن ١٥٢٧ حتى ١٥٣٠ ، إلا لتمحى نهائيًّا . فقد أصبح آل المديتشى دوقات توسكانيا . وفلورنسا وطن عدد هائل من عظماء الفنون : من مازاتشيو ، وبرونلّسكى ، حتى ميكلانجلو . ومن كتّاب عظام

(بترارك ، ودانتى ، وماكيافيلًى . وجيتشار دينى) وتثرى بنبل آثارها وتوفيقها : الدومو (الكاتدرائية) وقصور أسرة ستروزى والمديتشى وبيتى ، والتصوير « ألافريسكا » ، على جدران دير سان ماركو وفى مصلى الأسبانيول . وهى مدينة زهر « الليلك الأحمر » ، عاصمة الفنون والمال والأعمال . لقد كانت فلورنسا أهم مقر لحضارة أوربية فى طريق التجديد .

ڤالا (لورنزو) :

ولد عام ١٤٠٧ وتوفى ١٤٥٧ ، وهو واحد من مقيمى الهيومانزم . قدم لهيومانية إيراسم ، وعاش فى نابولى سنة ١٤٣٧ ، ثم استقر فى روما حيث عينه البابا سكرتيرًا رسوليًا . كان ينكر فلسفة أرسطو ، وينقد توماس الإكوينى لإهماله اللغة اليونانية . وكان الطلبة فى القرن السادس عشر يدرسون بلاغة اللاتينية فى مؤلفاته ، وهو الذى صَحّحَ أخطاء « القولجات » (الترجمة السبعينية للكتاب المقدس) وڤالا هو الذى أثبت زور الوثيقة التى قيل بأن الإمبراطور قسطنطين وهبها للبابا ، لينقل إليه السلطة المدنية . ولڤالا كتاب كبير باللاتينية (١٤٣٩) ينعى فيه على التقشف والزهد والتنسك بصفته « بطولة » العصر الوسيط . هذا الرجل العظيم إذن هو من أهم من أقاموا الهيومانية بمعناها الإنسانى الكامل الصادق فى كل مكان وزمان .

ڤيروكيو (أندريا دى ميكيلى) :

من مواليد فلورنسا ١٤٣٥ - توفى بفينسيا ١٤٨٨ . قدراته الفنية المتعددة صورة أولى لليوناردو دا فنشى . كان مصورًا ، نحّاتًا ، صائغًا ، يعنى بأنواع الهندسة ، وبالموسيقى ، والعمارة ، بل بالفلسفة . كان فى النحت الباحث المفسر لتركيبات المواضيع التى عالجها من قبله النحات العظيم دوناتِلْوز من أعمال ڤيروكيو تمثال « داڤيد » ، وتمثال الفارس الكوندوتيِيرى (قائد المرتزقة) «كوليونى » « فقد شاء أن يصبح دونا تلّو الأكمل ، قوته فى عزيمة البت ، يعنى فى نحته البرنزى بالكتلة والثقل ، وملئ الفراغ ، الباحث فى البروز والتفريغ عن حركة الضوء والظل (شاستيل الناقد الفنى الشهير فى عصرنا) قيمته التعليمية الكبرى فى عدد الفنانين العظام الذين عملوا بمرسمه ، ومن بينهم المصور بيروجينو ، ولورنزوكريدى ، وعظيم العظماء ليوناردو داڤينشى الذى تتلمذ عليه ، وكان مساعدًا له مدى أربعة عشر عامًا .

القسطنطينية :

كانت تنقسم اسطنبول إلى ثلاثة قطاعات وأرباض : القطاع الأول على القرن الذهبى . يحده سور ، وكانت جونة مستقر المدينة الإسلامية ، وبها عدد من المسيحيين (يونان وأرمن) ومن اليهود . أما على الشاطئ الشمالى فكانت « غلطة » ومن أرباضها « بيرا » وكانت قليلة السكان ، وغلطة كانت المدينة الأوربية . والقطاع الثالث هواسكودار (سكوتارى) ، وامتدادها (كاديكوى) وهى

« خلقدونيا » على البر الأسيوى لبوغاز البوسفور وبحر مرمرة .

امتدت أسوار القسطنطينية إلى ٢٠,٥ كيلو مترًا ، وبعد نصف قرن من الفتح العثمانى بلغ عدد سكانها ٢٥٠,٠٠٠ وارتفع العدد فى مطالع القرن السابع عشر فكان تعدادها من ستمائة إلى سبعمائة ألف ، المسيحيون واليهود فيها بلغوا ٤٢ ٪ . وظلت عاصمة السلطنة ، طوال القرنين : السادس عشر والسابع عشر ، أكثر مدن أوربا سكانًا .

روما :

سكانها فى ختام القرن الخامس عشر بلغوا نحو ثلاثين ألفًا . وفى عام ١٦٠٠ وصلوا إلى مائة ألف ، ويمكن أن يَصْدقَ القول بأن ذروة مجد فلورنسا كان فى القرن الخامس عشر – (الكوتروتشنتو) وذروة مجد روما – بل أمجادها – كان فى القرن السادس عشر (تشينكوبتشنتو) .. فهى التى جذبت إليها أعظم فنانى إيطاليا (باستثناء احتفاظ فينسيا بفنانيها) بل فنانين من خارج إيطاليا . وفى خاتمة الرينسانس كانت روما أجمل مدائن أوربا يمكن تأمل قيادتها الروحية للعالم الكاثوليكى ، فى القرن السادس عشر ، فهى مدينة نموذجية وأحد عناصر التحرك فى الحضارة الأوربية .

شارل الثامن :

نجل لويس الحادى عشر ، ولد عام ١٤٧٠ بمدينة امبواز (فرنسا) ارتقى العرش ١٤٨٣ وظل فيه حتى وفاته عام ١٤٩٨ ،

وعندما قرر إثبات حق فرنسا فى مملكة نابولى اقتحم إيطاليا فاتحًا ، سنة ١٤٩٤ ، استولى على فلورنسا وبلغ نابولى سنة ١٤٩٥ ، وفى العام ذاته اضطر للتقهقر والعودة إلى فرنسا بتهديد من حلف البندقية ، **كان عهده بدء الحروب داخل إيطاليا** .

تشيلّينى (بنفنوتو) :

ولد فى فلورنسا (١٥٠٠) سافر إلى روما واشتغل بالصياغة ، وانتهى أمره إلى هناك بتهمة القتل – نتيجة مبارزة – وأودع السجن حتى أنقذه ملك فرنسا فرانسوا الأول باستدعائه إلى قصره (١٥٣٠ – ١٥٤٥) ومن أعماله هناك حفرية بارزة تصور (جنية الماء) . كان موضعها حديقة قصر فونتنلبو . ثم نقلت منه إلى متحف اللّوڤر « وملاحته » المشهورة لفرانسو الأول ، وهى موجودة الآن بمتحف ڤينا . كان الفنانون يسخرون من تشيلّينى بوصفه نحّاتًا مبتدئًا . فحاول أن يبرهن لهم على أنه مثّال قادر على إبداع أعمال تذكر بدوناتلّو وميكلانجلو وكان على حق فى تمثاله « برسيوس » المقام فى « لوجيا » الحرس بفلورنسا فهذا التمثال أعظم أعماله . وقرأت منذ أكثر من ثلاثين سنة مذكرات تشيلّينى ، ومابرحت حيةً تقرأ إلى اليوم . تصوير كامل لحياته ومغامراته ، ولرجال ونساء عصر الرينسانس . توفى فى فلورنسا (١٥٧١) . [أعدت قراءتها سنة ١٩٨٢]

تربية الماشية :

تأخر إنتاج اللحوم واللبن فى الغرب ، إبّان عصر الرينسانس ،

ولكن تقدمت فى الوقت ذاته تربية الخِراف للغذاء فى المراعى الرومانية ، وللصوف فى إنجلترا ، وأسبانيا .

التوابل :

لزومها للطعام والصيدلة أدخلها فى النمو التجارى بين حاجة المغرب إلى المشرق ، وقد أدى هذا النشاط إلى الإهتمام ببلوغ مصادر التوابل ذاتها بالسفر إليها ، وذلك أدى إلى تأصيل البرتغاليين ، ثم أهل الأراضى الواطئة فى آسيا . وفى القرن السادس عشر تمهد المسلك التقليدى عن طريق الإسكندرية أو طرابلس الشام ، وعندما اتسعت المباريات تحول البرتغاليون فى إتخاذ طريقهم إلى آسيا بالطواف حول أفريقيا . وتغلّب نشاط أهل الأراضى الواطئة فى القرن السابع عشر على نشاط البرتغال .

التسامح الدينى :

هو ميراث الهيومانزم : نقولا دى كوبس ، وإيراسم ، ورابليه ، والبروتستانت حاولوا إفهامنا أننا مخلوقات الرب نطيع أخلاقيات ديننا . والأديان واحدة أو متقاربة فى الناحية غير العقائدية . لأنها تختص بالوحدة الأخلاقية فى كل إنسان فاضل ، بصرف النظر عن مراسيم عبادته . ولم ينجح البروتستانت فى هذا بسبب تعنت الكثلكة التى يتحكم فى شئونها قَيِّمٌ كبير ، وكانت الحروب الدينية نتيجة الخلافات العقائدية ، تتطلب من إنسان العصر التنديد بها .

تنظيم المدن (الأوربانزم) :

كانت مدن العصر الوسيط ضيقة خانقة . والرينسانس الذى درس الخرائب الرومانية و « الخطة » الأفلاطونية للمدينة المثالية ، (الأوربانزم) وفكر المهندسون والفلاسفة ورجال الدولة وجهدوا فى بلوغ معنى المدينة ، وهل تكون كطاولة « الضَّاما » ؟ وكان رأى العسكريين والفلاسفة أنصار المدينة المستديرة حول مركز بارح يمثل وسطها فى اتساعه وزخرفة أبنيته ويسر الوصول إليه من كل مكان بأطراف المدينة .

ملحقات إضافية

پترارك أول الهيومانيين

أشرت في كتابي إلى زيارة لموضع في جنوب فرنسا (البروڤانص) ، عاش فيه پترارك حقبة من حياته . ولقد عثرت في أوراق قديمة لي من عام ١٩٢٦ على ذكرياتي من تلك الرحلة ، أستأذن في نقل بعض ما جاء فيها . يوصف پترارك في الفصل الخاص به بأول الهيومانيين ، وأضيف هنا أن آخرين اعتبروه أول رجل جديد . وكانت رحلتنا إلى البروڤانص – أنا والمرحومة قرينتي – جعلت مركزها مدينة أڤنيون ، نخرج عنها في رحلات تستغرق اليوم ونعود إليها في المساء . وفي واحدة من هذه الرحلات اتجهنا إلى بلدة تسمى « إيل – سور – سورج » ووصفها بالجزيرة (إيل) ، مرجعه خمسة فروع لنهر السورج تقطعها ، مما يكسب البلدة جمالاً ولطفاً لثراء خضرتها ، ومسالكها المزينة بأشجار « البلاتان » ، وهو الدُّلْب .

ينابيع ڤوكلوز :

ركن من أرض « الميدي » (الجنوب الفرنسي) زاره پترارك في صباه ، فصاح إذ رأى المنظر الساحر : « لو أني أعطيت حرية

الاختيار ، فسوف أرانى مفضلا هذا المأوى الريفى » .

ومضت الأعوام ، وغدا الصبى رجلا أوفد من فلورنسا برسالة إلى بابا أڤنيون [فى سنوات الانشقاق البابوى الذى قضى بقيام بابا فى أڤنيون ، وبابا فى روما] . وفى هذه المدينة ، ذات صباح يوم من أيام الأحد ، وفى كنيسة سانت كلير ، شاهد پترارك فتاة من النبلاء تصلى بخشوع . وكانت هذه الرؤية مثارًا لإحساس شاعر إيطاليا الخالد بتباريح الهوى . أحب الفتاة المجهولة حبًّا معروفًا عند أهل العصر الوسيط ، وهو الحب الممتزج بإحساس دينى ، هو أقرب المشاعر إلى العبادة . وپترارك رجل دين [قس] يؤلمه أن يشعر بلهيب العشق الذى يمكن أن يهدد عذرية الحب ، فيتحول إلى رغبة أثيمة . فكان پترارك يهرب من الإحساس الخاطئ ، فيكتم عاطفته صارخًا : « واحسرتاه ! متى يجئ اليوم الذى أرانى فيه ناجيًا من هذه النوازع الحارة ، والعذاب المقيم ! » .

ثم حدث أن انتقلت الفتاة إلى الرفيق الأعلى ، فتحول الحب العذرى إلى تعبد صميم على أمل يوم اللقاء بين يدى الخالق سبحانه .

هذه هى قصة غرام الشاعر بالفتاة « لاورا » . تذكر كلمة صباه : « لو أننى أعطيت حرية اختيار إقامتى .. إلخ » . فسار پترارك إلى ينابيع ڤوكلوز ، يبث وجده تلك الصخور ، ويفجر أشعاره كأنها مياه السورج خارجه من بطن الجبل .

كانت رحلتنا من أڤنيون إلى ڤوكلوز تمتد إلى ثلاثين كيلو مترا ،

ليست شيئًا مذكورًا فى مقابل حجيج إلى مأوى الشاعر ، مؤلف الصوتيات والكانزونى إلى لاورا الحية ، ولاورا المتوفاة . وارتأنيا أن نقطع المسافة بالدراجات ، نتمتع بجمال الطريق ، ونشاهد المواضع الهامة عليه .

ولنتجه الآن فى طريقنا إلى الينابع التاريخية ، وقد حدث تغير فى طبيعة الأرض ، والمناظر المحيطة بها بعد خروجنا من آخر قرية فى طريقنا . وبدأ المسار فى الارتفاع ، وانبسط السهل من الجانبين تزينه أشجار السرو والزيتون والدلب والحور ، ويواجهنا على البعد جبل ڤانتوه ، يغطى الشجر سطحه فيما عدا بقاع تنعكس عليها أشعة الشمس ، فتكسوها لونًا أبيض مشوبًا بالصُّفرة تتزايد كلما آذنت الشمس بالمغيب .

وهكذا سرنا صعدًا إلى ينابيع ڤوكلوز ، حتى بلغنا ركنًا للدراجتين . ودرجنا على الإقدام صعدًا فى طريق محفوف بأشجار الزيتون .

وهذه الينابيع هى منطلق نهر السورج ، أحد فروع نهر الرون . مياه السورج تخرج من عيون بين فرجات الصخور ، فى فوارات متدفقة ، تجتمع لتكوّن المجرى الضيق الذى حاذيناه منذ مغادرتنا لآخر قرية فى طريقنا من أڤنيون .

ارتقينا إلى جوار الينابيع ، مقودين بصوت المياه المتدفقة . وقدمت لنا إحدى البائعات فرعين من أزهار اللواندة . وعلى شاطئ

النهر مقهى يحمل اسم بترارك ولاورا ، ويقال بأنه مقام فى مكان المنزل الذى عاش فيه الشاعر . وفوق المقهى لوحة عليها كتابة تقول بأن الشاعر ألف فى هذا الموضع الصورتنا رقم ١٢٩ .

والآن بلغنا مجموعة من الصخور ينساب فوقها ، ومن حواليها الماء مزبدًا . فما أجمل زرقة الماء مختلطة ببياض الضوء ، كل ذلك فوق حلقة من الصخور السوداء . بعضها لا تصل إليه المياه – فحتى فى الصيف ، فصل الجفاف – تغطيها الطحالب فى خضرة تشرح الفؤاد .

ما هى تلك العيون السحرية التى تروى واديًا بالماء ؟ وما هى تلك الكهوف فى بطن الجبل التى تمد نهرًا يروى وحده ٢١٦٥ هكتارًا من الأرض حتى يبلغ نهر الرون ؟ وما هى تلك القوة التى تحرك تروس ١٦٠ معملا منتشرًا على شواطئ السورج ؟ .

إلى هنا جاء بترارك متيما بلاورا ، هاربًا من بابوات أڤنيون . إيه ياينبوع الحياة والشعر والتاريخ جئت إليك من بلاد نائية ، لم أعرف عنك شيئًا ، ولم أسمع باسمك من قبل . إنها لواحدة من مصادفات الحياة السعيدة قربتنى منك ! .

وإذا كان دانتى اليجيرى ، ابن العصر الوسيط أبعد من أن يوصف بعامل فى ظهور حركة « الأحياء » فإن بترارك يوصف حقًّا بأول الهيومانيين ، يمثل الإنسان الجديد لعصر جديد . أهم

الشخصيات فى تاريخ الأدب الإيطالى الجديد ، فكاد حبه العذرى للاورا مبعث خلود الاثنين .

وإذا كانت شهرته الأدبية مؤسسة على صونتاتة وكانزوناته مكتوبة باللغة الإيطالية ، فإن مؤلفاته باللغة اللاتينية الفصحى هى التى أذاعت شهرته فى حياته . على أن الرجل أهم فى ذاته وروحه ، وهى التى تقربنا إلى عصرنا الحاضر فى صورة غرامه ، بل فى تفرده بنظرته إلى حياته الداخلية . ويظهر ذلك فى رسائله الخاصة ، وفى اعترافاته ، وفى سيرته الشخصية التى سماها « رسالته إلى الأعقاب » . وفيها كانت عنايته بدخيلته ، ونمو إدراكه العقلانى أكثر من سرد وقائع لا علاقة لها إلا بخارجه ، لا بروحه .

أرسل إلى صديق عزيز رسالة يقول فيها – وكان قد بلغ الواحد بعد الثلاثين من عمره – بأنه صعد وشقيقه إلى قمة جبل ڤانتوه ، وشاهد من ذلك المرتفع ، السحاب والجبال والبحر . وفكر فى البعد السحيق لبلاده . وإذا به يخرج من جيبه كتاب « اعترافات القديس أغوسطين » . فتح الكتاب دون هدف ، وطالع ما طلع له فى « البخت » : « يذهب الناس للإعجاب بمرتفعات الجبال ، واندفاع آذى البحر فى عنفها العاصف ، واتساع الأنهار ، وامتداد الأقيانوس ، وحركة النجوم ، وينسون أنفسهم » . أقفل الكتاب ، وغضب من اعتنائه بالأرضيات ، فى حين كان الفلاسفة الوثنيون أنفسهم يعلمونه معنى الروح وقيمتها ، وعظمتها ، وهو معترف بتطلعه إلى المجد ، فهذا إحساس جديد نشأ مع الرينسانس » ، ولم يك

معهودًا فى العصر الوسيط . أما من ناحية وسوداوية الحزن ، ونار العشق فهذا فى رأينا من أحاسيس القرن التاسع عشر ، تحليله لها يمكن أن يجئ به شاب من هذا القرن الأخير.

حظى پترارك بأقصى درجات المجد فى حياته ، وفى كل عام يوم عيد الميلاد كان يفد عليه . وفد من أساتذة جامعة پادوا ، وطلبتها ، حاملين الشموع الموقدة ، ونافخين فى الصور .

وأسمى مراتب التبجيل حدث فى استقباله بالكاپتول الرومانى فى أبريل عام ١٣٤١ وتبارت جامعة باريس ، وبلدية روما فى تتويج الشاعر على قصائده اللاتينية .

ارتقى پترارك مبنى الكابتول ، وسط هتاف الجماهير . وتَوّجه عضو الشيوخ عن مدينة روما ، بفروع الغار . وتوجه الشاعر المتوج من الكاپتول إلى كنيسة القديس بطرس (الڤاتيكان) حيث وضع تاج الغار تذكارًا مقدسًا

نموذجان من الكانزونييرى

حينما أشرف من هذه الآجام الوحشية على هذا السّهل المنبسط ، حيث ولدت تلك التى ملكت فؤادى فى عنفوانه ، وزهرة شبابه ، أفعم الجو بآهاتى .

ارتفعت إلى السماء وتركتنى برحيلها المفاجئ . اتفقدها عبثًا فى ذلك البعد ، فأنْضَحُ بدموعى كل ما حولى .

ليس فى الوادى من عشب ، ولا فى الآجام من صخر ، ليس من عسلوج ، ولا من ورق أخضر فى هذه السهول ، ولا من أزاهير ، ولا من حشائش فى هذه الأصقاع ، وليس فى هذه الينابيع من نقطة ماء ، ولا فى هذا الغاب من حيوان ، لا يعرف فداحة الألم الذى حل بى فى فقدك ، يا حبيبتى .

من أول يوم فى رحيل سيدتى ، أحاطها الملائكة المختارون ، والأرواح الهانئة التى تسكن السماء ، بالإعجاب وبالعاطفة القدسية .

ما هذا الضياء ، وما هذا الحسن الجديد ؟ تحدثوا به فيما بينهم على مدى الزمان ، عن مخلوق بهذا الجمال ، ارتفع من هذه الدنيا الضائعة إلى المقر الأعلى .

إنها لسعيدة بتغيير مسكنها ، شاعرة بمستواها الأكمل .

ولكنها تتلفت من آونة لأخرى ، وكأنها تنتظر .

وأنا أرفع إلى السماء كل شوقى وتوقى ، وكل أفكارى ، إذ أنصت إليها تتوسل إلى بأن أغذ السير ، وأوسع الخُطى [لألحق بها] .

بوكاتشيو

يصغر بترارك بسنوات قليلة ، ويزامله فى نشأة الهيومانية ، وكان على اتصال دائم بزميله الأكبر ، يتبادلان الرسائل . وكانت له عشيقة باسم « فياميتّا » أسعدته خمسة عشر عامًا .

لم يتميز بشعره ، فقد كان ناثرًا بليغًا . وما فتىء كتابه باللغة الإيطالية مقروءا إلى اليوم فى العالم المتمدن . وله مؤلفات باللغة اللاتينية منها كتاب عن أرباب اليونان وأساطيرهم ، وكتاب عن شهيرات النساء ، يبدأ بأم البشر حواء ، وينتهى بجنّا ملكة نابولى : واحد وسبعون سيدة من العصر الكلاسيكى ، وسبع سيدات من العصر الوسيط .

واخترت لك واحدة من حكايات كتابه الأشهر « الديكاميرون » ، قصة قصيرة اتخذها المؤلف الدرامى الألمانى « ليسنج » Lessing موضوعًا لمسرحية بعنوان « ناتان الحكيم » .

الأقصوصة الثالثة

« الديكاميرون »

بقلم

چيرڤانى بوكاتشيو

ثلاثة خواتم وثلاث ديانات

كان صلاح الدين الأيوبى رجلاً عظيمًا ، فائق الشجاعة ، ارتفع بكفاءته إلى سلطنة مصر.. وحقق انتصارات لامعة على الصليبيين . وكلفته حروبه مالا كثيرًا ، بالإضافة إلى سماحته وكرمه . فأقفر بيت المال فى وقت احتياجه عاجلا لمبلغ كبير . فتذكر يهوديًّا ثريًّا يعيش فى الإسكندرية ، اسمه ملكى صيدق ، يقرض ذوى الحاجة مقابل فوائد فاحشة . وارتأى صلاح الدين الاستعانة به للخروج من المأزق . وكان اليهودى بخيلا بوقته ، وبماله .

السلطان لا يريد العنف فى مطالبته بقرض ، والمرابى لن يتخلى بيسر عن أمواله . فلجأ صلاح الدين إلى وسيلة تحقق مرامه ، وهى استدعاؤه إلى « بابلون » عاصمة مصر فى ذلك الوقت .

استقبل ملكى صيدق فى القصر ، وأجلسه إلى جانبه فى بشاشة ، وقال له : « إن أشخاصًا كثيرين ياملكى تحدثوا إلى عن حكمتك ، وعلمك ، وخاصة فى اللاهوت . وعندى لك سؤال أرجو أن تجيبنى عنه : ما رأيك فى الأديان الثلاثة ، أيها المفضّل والصحيح ؟ أهو

العبرية أم الإسلام . أم المسيحية ؟ ,

أدرك اليهودى صنو الحذر والحكمة ، أن السلطان ينصب له شركًا ، وأنه لو تقدم بتفضيل واحد منها ، فمعنى ذلك أنه أخرق . فلم يفقد إتزانه ، وبحضور ذهن عجيب ، قال للسلطان :

سؤالك يا مولاى ، وقد تفضلت وطلبت الإجابة عنه ، يجمع بين الحسن والأهمية . ولكى أجيبك ، يا مولاى ، استسمحك بادئ ذى بدء ، بسرد حكاية صغيرة :

« تناهى إلى خبر عن رجل من بلد لا أعرفه ، وهو أنه من الأثرياء ، وذوى المقام ، يحتفظ ضمن جواهره بخاتم غاية فى الجمال ، ولا يقدر بمال ، فسعى إلى وسيلة الاحتفاظ بهذا الكنز النادر ، بتورثيه إلى واحد من أولاده ، ليبقى تذكارًا له بعد وفاته . فوضع فى وصيته أن من يجد الخاتم فى أجرازه ، يغدو وريثى الوحيد . ويتعين عليه أن يحتفظ به ليبقى فى الأسرة ، وأن يكون لوريثه من يجده ضمن أحرازه ، ليصنع به مثلما صنعت .

وبهذا تتابعت الوصايا فى أحفاده بنفس الإجراء . حتى جاء حفيد أخلف ثلاثة أولاد ، تميزوا كلهم بالعطف والفضائل ، والنباهة ، وحسن الملامح ، والطاعة للوالدين . فكان حب الأب لهم بمساوات كاملة . فاضطر أن يعد كل منهم – على حدة ! – بأحقيته فى الخاتم الأوحد . وتقدم به العمر ، وهو فى حيرة مما يصنع لإرضائهم حتى انتهى به العطف إلى وسيلة لا ثانى لها :

ذهب إلى« جواهرجى» اشتهر بفنه ، وطلب منه أن يصنع خاتمين صورة طبق الأصل للخاتم الأول . وأجاد الصائغ الفنان فى صنعه ، إلى درجة أن الأب الشيخ لم يستطع التمييز بين الأصل والمحاكاة .

بعد وفاة الأب ، بدأ الخلاف بين الأشقاء . فكل منهم يرى أن الإرث من حقه لتكون له الرياسة على شقيقيه . وانتهى بهم الأمر إلى عرض الخواتم الثلاثة على خبير . فقطع بأنها متساوية ، ولا تمييز بينها . فهى إذن قضية لا تنتهى إلى نتيجة .. » .

وكذا الأمر يا مولاى فى شرائع الرب التى أنزلها على شعوبه الثلاثة ، كل واحد منها يعتبر شعبه مالكًا شريعته الحقة ، يعمل بسنتها وفرائضها ، ومن المحال أن نعرف أى الثلاثة على حق فيما يؤمن به . والشأن فى سؤال عظمة السلطان يظل معلقًا دون قرار . ويبدو لى أنه باق على هذا المنوال ، إلى ماشاء الرب سبحانه .

وتبين لصلاح الدين فى هذه الإجابة أن اليهودى تخلّص بلباقة من الفخ الذى نُصب له . وأدرك السلطان أن لا جدوى من إعداد فخ آخر . ولم يجد مناصًا من الانفتاح بمطالبه دون مواربة . أبلغه بحاجة بيت المال .. إلى المال ، فهو يطالبه بسلفة هامة .. وقد أفهمه فى الوقت ذاته بما كان فى قدرته أن يصنع معه لو أن إجابته على استفهامه جاءت أقل حكمة .

وتملك الكرم ذات اليهودى . فأقرض السلطان كافة ما طلبه منه . وقدر السلطان موقف ملكى صيدق حق قدره أو شكره على

صنيعه . ولم يكتف فيما بعد بوفاء الدين ، بل أغدق على اليهودى بالهدايا ، واحتفظ به أمينًا جديرًا بمكانته ، بل شرفه دائمًا بصداقته .

* * *

هذه الحكاية ، تأليف بوكاتشيو Pocaccio صديق الشاعر بترارك Pitrark هى التى أشير إليها لتضاف إلى مكارم صلاح الدين يوسف بطل أبطال الحرب الصليبية فى الأرض المقدسة ، فهو الذى أعاد بيت المقدس إلى أهله .

ومثلها ما صنعه مع الصليبى البريطانى قلب الأسد . عندما أوفد إليه فى مرضه طبيبه الخاص ، الذى تولى علاجه . ومثلها مجرد قبوله بالصلح مع أعدائه .

قارن هذا بما قاله البابا مؤنبًا للإمبراطور فريدريك الثانى من أسرة الهوهنشتاوفن عندما أجرى الصلح مع المسلمين فى الأرض المقدسة : « الصليبى سافر للحرب ، لا ليعقد سلامًا » .

الفهرست

صفحة

رقم الإيداع	٢٥٧٨ / ١٩٨٤
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٢-٠٧٩٣-٤	ISBM

١ / ٨٢ / ٢٨٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يتناول المؤلف عصر الرينسانس أو ما يعرف بعصر النهضة أو عصر الإحياء ، وهى حضارة نشأت فى الدويلات الإيطالية .

ولم يكتف المؤلف بالمراجع الموثوق بها التى تناولت هذا العصر . لكنه جمع إلى جانب هذا تأمله الخاص ، خلال مشاهداته ، ومعايشته لهذه الحضارة ، متنقلاً بين فنونها وآدابها وآثارها .

ويشعر القارئ أن مثل هذا الكتاب ينقله إلى مناطق التاريخ والأدب والفن ، ويقرب حضارة العالم البعيد ليجعلها بين يديه دون أن يبذل من نفسه غير الرغبة فى القراءة والاستمتاع والمعرفة .



ص
١٦٠